الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المجلس الأعلى للغة العربية

سوانح و ارتسامات عابر سبيل

رحلة إلى مهرجان الشباب والطلاب العالمي في فرصوفيا 1955 م

تأليف: محمد الصالح رمضان

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية
الجزائر 2004

سـوانـح و ارتـسـامـات
عـابـر سبيـل

- نبضـات قلب فـي كلمـات
- وخطرات فكر فـي صفحات
- وتأملات شاعر في وقفـات

تصوير حي للمشاهد وسرد بارع للأحداث
يطفح بالمتعة والفائدة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المجلس الأعلى للغة العربية

سوانح و ارتسامات عابر سبيل

رحلة إلى مهرجان الشباب و الطلاب العالمي في فرصوفيا 1955م

نبضات قلب في كلمات
وخطرات فكر في صفحات
وتأملات شاعر في وقفات

تأليف: محمد الصالح رمضان

تقديم الدكتور/ عمر ابن قينة

مراجعة وتنسيق : أ.عبد المجيد بن داود

الجزائر 2004

منشورات المجلس الأعلى للغة العربية - جميع الحقوق محفوظة-

الطبعة الأولى 1425/2004

06، شارع العقيد أحمد بوقرة - الأبيار - الجزائر

ص.ب 575 ديدوش مراد - الجزائر

الهاتف: 25 / 24 07 23 21 213 00

الفاكس: 07 07 23 21 213 00

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى روح صديقي قي رحلة الحياة التي دام تلازمنا فيها عشر سنوات لا نكاد نفترق، ذقنا فيها ما يعرفه كل من أصيب بالاستعمار الاستيطاني الطاغي والاستعمار الثقافي العنصري الصليبي الباغي.

إلى روح رفيقي في الرحلة إلى وارسو (فرصوفيا) التي استمرت عشرين يوما تلازمنا فيها تلازما كاملا، ذقنا فيها فائدة الانطلاق والحرية، وشعرنا فيها بالكرامة الإنسانية، فتنفسنا بملء صدورنا من ضيق الحكم الفرنسي الظلوم وعنت الاستعمار الاستيطاني الغشوم.

إلى روح الأديب الشيخ الحفناوي هالي الكاتب الفكه الأريب، والشاعر المرح اللبيب، أقدم هذه (السوانح والارتسامات) التي كان هو أحد أسبابها وخاصة النفحات الشعرية والنفثات الصدرية التي أثارتها جولة قمنا بها ذات مساء على ضفاف نهر (الفستول) بفرصوفي، وكان هو السبب في إذكاء جذوتها وإبداء نفحتها تغمده الله برحمته.

محمد الصالح رمضان

صورة شخصية للمؤلف خلال الفترة التي قام فيها
بهذه الرحلة

ترجمة ذاتية موجزة
لمحمد الصالح رمضان

– من مواليد سنة 1914 بالقنطرة ولاية باتنة، وفيها نشأ وتعلم مبادئ الإسلام واللغة العربية في مدرستها الحرة واللغة الفرنسية في المدرسة الرسمية إلى الشهادة الابتدائية.

– في سنة 1934 التحق بدروس ابن باديس في الجامع الأخضر وفروعه بقسنطينة.

– في سنة 1934 عينه ابن باديس معلماً في مدرسته (التربية والتعليم الإسلامية) بقسنطينة وكان له نشاط ملحوظ في الكشافة الجزائرية – في سنة 1943 عينه الإبراهيمي مديرا ومعلما لمدرسة غيليزان بعد وفاة ابن باديس

– في سنة 1946 عينته جمعية العلماء المسلمين مديراً لمدرسة دار الحديث بتلمسان، ومفتشاً جهوياً لمدارس الجمعية بدائرة تلمسان

- في سنة 1953 عين مفتشاً عاماً لمدارس جمعية العلماء في الوطن، وعضواً في المكتب الدائم (للجنة التعليم العليا) في مركز الجمعية بالعاصمة.

- في ثورة التحرير عمل في صفوف جبهة التحرير الوطني (بقسمة القبة) حيث يسكن، وعضواً في(المحكمة المدنية) لجبهة التحرير بالعاصمة، ثم صار إطاراً سامياً في اللجنة المركزية لجبهة التحرير ممثلاً للمجلس الإسلامي الأعلى بها ابتداء من مؤتمرها السادس وأعيد انتخابه في مؤتمرها السابع.

- في بداية الاستقلال عين مديرا للتعليم الديني بوزارة الشؤون الدينية، فأنشأ لها المعاهد الإسلامية وجلب لها الأساتذة الأزهريين على حساب مصر.

- ولمّا أدمج معلموا العربية الأحرار في الإطار العام للتعليم، التحق بوزارة التربية الوطنية ليضمن أقدميته في التعليم، فعرضت عليه مناصب عليا بها منها: مدير بالوزارة أو مفتش عام للتعليم الثانوي بالجزائر العاصمة، أو مدير أكاديمية الجزائر ، أو غيرها من الأكاديميات بالولايات أو إدارة ثانوية بالوطن فاعتذر ليتفرغ لعائلته وتربية أبنائه، واقترح بأن يكون أستاذا بثانوية حسيبة بالقبة فقط، ليجد بعض الوقت لخدمة عائلته وأولاده فكان له ما أراد..

- عين عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى في الثمانينات، وعضواً في المجلس الوطني للثقافة سنة 1990، ثم مستشاراً لوزير الثقافة والإتصال سنة 1992، وعضواً في اللجنة الوطنية لليونسكو بالجزائر، وعضو اتحاد الكتاب الجزائريين.

- حضيَ بتكريم من رئيس الجمهورية يوم 1987/7/5 في الذكرى 25 للاستقلال ضمن نخبة من المبدعين الجزائريين بقصر الثقافة بالقبة.

– له كتابات متنوعة في مختلف الصحف والمجلات وطنياً وعربياً، ومعدود من شعراء (معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين)في المجلد الرابع صفحة 283 المطبوع سنة 1998 في عدة أجزاء ضخمة..

من مؤلفاته المطبوعة:

– مسرحية(الناشئة المهاجرة) طبعتان الأولى بمطبعة ابن خلدون بتلمسان 1940، والثانية في المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة1989.

– ألحان الفتوة (شعر)عدة طبعات في القاهرة ولبنان والجزائر ابتداء من سنة 1953

– جغرافية الجزائر والعالم العربي : طبعتان بدار الكتاب الجزائري 1964 ومكتبة النهضة لميموني بالجزائر 1965

– العقائد الإسلامية لابن باديس تحقيق وشرح وتعليق عدة طبعات في مصر ولبنان والجزائر وأخيرا الإمارات

– النصوص الأدبية للمعاهد الإسلامية أربعة أجزاء بالإشتراك مع توفيق شاهين طبعتان في مصر ولبنان

– شهيد الكلمة (أحمد رضا حوحو) منشورات وزارة الثقافة بالجزائر 1984.

– الخنساء رواية مسرحية طبع المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1986

– المولد النبوي الشريف(رواية تمثيلية) طبع (دار الأمة) لابن نعمان1996.

– الإمام الشيخ إبن باديس بالإشتراك مع عبد القادر فضيل دار الأمة سنة 1998

- ديوان الأمير عبد القادر تحقيق وتعليق وشرح بالإشتراك مع السائحي بن عبد القادر طبع مؤسسة الأمير عبد القادر 1998

- وفي تحقيق التراث بدأ بتراث ابن باديس في سلسة(من تراثنا الخالد) فطبعت له خمس حلقات هي:

- العقائد الإسلامية تحقيق وتعليق وشرح تلميذه محمد الصالح رمضان

- تفسير ابن باديس، ومن هدي النبوة، ورجال السلف، ونساؤه.
والقصص الهادف بالاشتراك مع د.توفيق شاهين المصري.

تـــقـــديـــــم

د. عمر بن قينة

الدكتور عمر بن قينة أستاذ محاضر بجامعة الجزائر المركزية (معهد اللغة العربية وآدابها)، تخصص أخيرا في أدب الرحلة الجزائرية الحديثة، وأخرج فيها سنة 1995م كتابين قيمين في (أشكال الرحلة وصورها) وفي (اتجاهات الرحالين) وهاهو ذا يقدم رحلتنا هذه، معرفا بها وبصاحبها مشكورا ؛

* * *

عرفت من بعيد الأستاذ (محمد الصالح رمضان) كاتبا وشاعرا، ولم أكد أشرع في الاقتراب منه حتى اكتشفت فيه الإنسان الأديب المتواضع الذي يغمرك بمعارفه ووده البريء من الرياء، كما لا يبخل عليك إن كنت باحثا بما يتوفر عليه من معلومات ومصادر ومراجع، قد تضيع منه أحيانا لدى البعض، ومع ذلك فهو لا يبخل بها عليك.

عرفت هذا وغيره في الرجل، ولم اعرفه كاتب رحلة شغوفا بالسفر إلا منذ نشر رحلته (سوانح وارتسامات عابر سبيل) في حلقات بجريدة (الشعب) الجزائرية (ابتداء من العدد 7396 في الأول من أوت 1987م،

وانتهاء بالعدد 7423 في 7 سبتمبر 1989م) وبقيت الصورة في حاجة إلى صقل شرع يتم حين بدأت تتواتر جلساتي الأدبية معه في بيته بحي (ابن عمر) في القبة بمدينة الجزائر(ابتداء من السنة 1989م).

من هنا انطلقت أعيد قراءة الرجل من أكثر من جانب، وكان أول ما حاز اهتمامي أدبيا في هذه الفترة رحلته هذه التي يدرك فيها القراء كثيرا مما لم تبح به سائر آثاره الأخرى كاتبا وشاعرا، وقد اتحد الكاتب والشاعر في هذه الرحلة أيما اتحاد، شعورا وإبداعا، فتناغمت اللوحة النثرية مع الصورة الشعرية تناغما عذبا لذيذا.

وإن كان الأستاذ (محمد الصالح رمضان) في غِنًى عن التعريف بالنسبة للحركة الأدبية الجزائرية، فإن ذلك ضروري عربيا وإسلاميا وأجنبيا، فهو من رجال الحركة الفكرية والتعليمية والإصلاحية الحديثة بالجزائر وبعد أن تعرض لبسط ترجمته وذِكْر أعماله ومؤلفاته انتقل إلى رحلته (سوانح وارتسامات) قال :

ولد سنة 1914م في (القنطرة) بالأوراس من ولاية (باتنة)، درس في مسقط رأسه المبادئ باللغتين العربية والفرنسية، ثم على يدي الشيخ ابن باديس ومساعديه في (قسنطينة) الذي عينه من بعدُ معلما في مدرسته (التربية والتعاليم الإسلامية) في سنة 1937م ومرشدا لفوج (الرجاء) للكشافة الإسلامية الجزائرية، كل ذلك في قسنطينة. وفي عهد رئاسة الابراهيمي لجمعية العلماء المسلمين عينه هذا معلما ومديرًا لمدرسة الجمعية في مدينة (غليزان) سنة 1943م، ثم مديرًا لمدرسة (دار الحديث بتلمسان) في سنة 1946 ومفتشا

جهويًا لمدارس الجمعية بالدائرة، ثم مفتشا عاما وعضوًا في المكتب الدائم لـــ (لجنة التعليم العليا) المشرفة على مدارس الجمعية بالقطر الجزائري.

وفي بداية الاستقلال مباشرة في أكتوبر سنة 1962م عُين مديرًا للتعليم الديني بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية، فأنشأ (المعاهد الإسلامية) في أمهات المدن وجلب لها الأساتذة من الجزائر وتونس، ومن الأزهر بالخصوص على حساب مصر (مشكورة).

ثم التحق (بوزارة التربية الوطنية) لما أدمجت الدولة معلمي جمعية العلماء في الإطار العام للتعليم سنة 1964، فعُين أستاذا للغة العربية وأدابها، وعُرِض عليه التفتيش العام في الثانوي، أو إدارة الثانويات، والأكاديميات فأبي، وبقي أستاذا حتى أحيل على المعاش سنة 1979، وهي السنة التي عُين فيها عضوًا في المجلس الإسلامي الأعلى بعد تجديده.

له عدة أعمال مطبوعة ومخطوطة، فمن المطبوع : (ألحان الفتوة) – شعر– 1952 و(جغرافية الجزائر والعالم العربي) 1964، و(الخنساء) رواية تمثيلية 1986 الخ. زيادة عن إحياء تراث أستاذه ابن باديس : (العقائد الإسلامية) و(تفسير ابن باديس) و(من هدي النبوة)، و(رجال السلف ونساؤه) الخ، فضلا عن عشرات البحوث والمقالات والمحاضرات في ملتقيات الفكر والثقافة.

أما رحلته (سوانح وارتسامات عابر سبيل) فقد نشر قسميها : الأول والثاني في حلقات بجريدة (الشعب) سنة 1987، ولم ينشر القسم الثالث لاعتبارات عديدة صحفية وسواها فيما يبدو، وهي تقدم اليوم مطبوعة متكاملة

في حلة جديدة تخاطب عقل القارئ ووجدانه، تفيده وتمتعه. وهي رحلة إلى (بولونيا) في سنة 1955 أعتبرها أنا في مقدمة نماذجه النثرية، وقد تألق الأديب فيها فكرًا وأسلوبا في فقرات عديدة، في صلته بالناس وبالطبيعة، وفي رد الفعل تجاه موقف أو حركة أو منظر من مناظر الطبيعة، في حلل رومنسية زاهية على الأراضي التي مر بها، أو في صورة من صور الحياة الزاخرة المشعة بشرا وأملا، تنهض من خراب ودمار تركته مدافع وقنابل الحرب العالمية الثانية في (فرصوفيا)، مرورا في كل ذلك بالتوق الوطني الحالم باستقلال (الجزائر) المأمول، لتكون حرة مستقلة كسائر الدول والشعوب ذات التاريخ العريق الحافل.

كانت الرحلة في وفد رسمي تعددت أفراده، واختلفت مشاربهم وأهواؤهم وغاياتهم، عنوانها -كما أسلفتُ- (سوانح وارتسامات عابر سبيل) مَتْلُوًا بعنوان فرعي هو (رحلة إلى مهرجان الشباب والطلاب في فرصوفيا سنة 1955) وعلى هامش ذلك تعليق دال يقول نصا :(نبضات قلب في كلمات، وخطرات فكر في صفحات، وتأملات شاعر في وقفات).

وقد أعد الكاتب – منهجيا- رحلته هذه في ثلاثة أقسام، هي : (الرحلة إلى بولونيا)، و(فرصوفيا مدينة المهرجان) و(من وحي الرحلة).

ففي القسم الأول شرع الكاتب يصف السفر بحرًا فبرًا من مدينة (الجزائر) إلى (بولونيا) ابتداء من يوم 1955/7/25 وقد لاح له (البحر الأبيض المتوسط) حاجزا طبيعيا فاصلا تاريخيا وجغرافيا وحضاريا بين (الجزائر) الثائرة المجاهدة يومئذ، و(فرنسا) المستعمرة المستبدة الماكرة التي

أرادت أن تجعل من الجزائر أرضا فرنسية، ومن شعبها شعبا فرنسيا، رغم البحر الأجاج الذي يفصل بينهما في كل شيء.

لكن الأرض الأوروبية تاريخا، ومناظر طبيعية، وأنماط حياة، سرعان ما تشرع تمارس هيمنتها وسحرها في فكر الكاتب وعلى عاطفته، ابتداء من الساحل اللازوردي الفرنسي، مرورا بالرِّفيرا الإيطالية، ووقوفا بالبندقية (فنيزيا) الساحرة على شاطئ الأدرياتك، وطبيعة الحياة في كل من (فيينا) بالنمسا و(براغ) في تشيكوسلوفاكيا، حتى (بولونيا) حيث حط الرحال في (عاصمتها فرصوفيا) خمسة عشر يوما بلياليها ليعيش أجواء المهرجان الشبابي الطلابي الدولي الذي يحضره واحد وثلاثون ألف مشارك من مختلف الدول والشعوب.

وقد أثر الكاتب في نهاية هذا **القسم الأول** من الرحلة أن يحدثنا عن العودة ومسارها في يوم 1955/8/14 ليجمع بين طرفي السفر (ذهابا وإيابا)، مؤجلا تفاصيل انطباعاته عن (فرصوفيا) ومهرجانها إلى **القسم الثاني**، حيث ذكر خط الرحلة من (بولونيا) إلى (تشيكوسلوفاكيا) ف(النمسا)، ف(سويسرا) التي خصها بحديث تاريخي وجغرافي- لينتهي منها إلى الحديث عن الطريق إلى مدينة (ليون) الفرنسية، ثم مرسيليا، للعودة منها إلى (الجزائر) بطريق الجو.

أما القسم الثاني (فرصوفيا مدينة المهرجان) فقد افتتحه الكاتب بنبذة تاريخية عن فكرة المهرجان الوليدة في (لندن) سنة 1945، المجسدة لأول مرة في المهرجان الأول عام 1947 ب(براغ)، والثاني في (بودابست) سنة

1949، والثالث في (برلين الشرقية) سنة 1951، والرابع في (بوخارست) سنة 1953. ثم ينصرف إلى وصف أجواء المهرجان الخامس الذي ملأ الحياة في (فرصوفيا) بشرًا وحبورًا، وحوّل المدينة إلى (عاصمة عالمية) فعلا للشباب، تعج بالمرح والحياة والتودد، وهي الفرصة التي استدرجت وضع الشاب الجزائري في وطنه تحت نير الاحتلال الفرنسي، فتقتحم الذاكرة صور المجازر الاستعمارية الفرنسية، خصوصا تلك التي جرت في ماي 1945 ولم تكن مفصولة في جوهرها عن مجازر طاغية روسيا (ستالين) خلال سنتي (1936 و1937)، ومجازر جبار ألمانيا (هتلر) في سنة (1943) وقبلها وبعدها...

في هذا الجو الزاخر أَلَقاً وبِشْرا وحبورا، كان الكاتب وصديقه المرافق له في الرحلة (الحفناوي هالي) يعبان من جمال الطبيعة والبشر والحبور، وصور الأمل والتوق العنيد، وقد توفرت عناصر بهجة تزيل كدرًا وتمنح دفئا وسلاما (الماء والخضرة والوجه الحسن) فقادتهما أقدامها يوم العطلة الأسبوعية إلى (حديقة الحيوان الكبرى) على ضفاف نهر (الفستول) فأمتعا النظر والروح بمشاهد الطبيعة الجميلة الزاخرة (أشجارًا وطيورًا وماءً وحيتانا وحيوانات مختلفة الأحجام والأشكال وبَشَرًا من كل الأجناس)، وما كادا يتوقفان أمام بركة ماء يتأملانها حتى اقتحمت عليهما عالمهما فتاتان شقراوَانِ (كأنهما توأمتان) رافقتاهما، وتبادلتا الحديث معهما (بلغة فرنسية سليمة) فكان لسحر جمالهما وعذوبة لفظهما ولطفهما وأدبهما فعل عاصف، تَصَوَّره صاحب الرحلة يجتاح كيان رفيقه (هالي) فينقاد لهما وينساب معهما، فانجب خَيالُ الكاتب الشاعر (رمضان) قصيدة عذبة رائعة عن صاحبه بعنوان : (شيخ من صحراء

الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو) بعد تلك الأمسية، وقد خُيِّل للشاعر في تلك الليلة أن صاحبه يعاني في نومه ما يعاني... مما اجتاح نفسه من أشواق روح وجسد، حتى هرع إلى الله ملاذا، أملا في عفوه ومغفرته. تحدث الكاتب في هذا القسم عن الأرض والإنسان في واقع جديد بعد حرب مدمرة، حيث ينشط الإنسان العالم المستبشر، فقدم انطباعات غزيرة مختلفة، انطباعات رحالة فعلاً لا رجل تاريخ وجغرافيا، ولا باحثا في علم اجتماع، من ذلك حديثه عن (قصر الثقافة) العملاق من دون إقصاء للصور السلبية وهي تقتحم الذاكرة في (حمَّامات الدماء) التي ارتكبتها (الدكتاتورية) في كل العصور، ومنها (ديكتاتورية) الحكم الفرنسي في الجزائر حيث القيمة للأوروبي ولو كان منبوذا في (غابة)، ولا قيمة لشعب كامل كالشعب الجزائري – بمنطق الاستعمار– ولو كان شعبا عظيما بتاريخه، وهو منطق الحقد والعنصرية والكراهة الذي صوره أحد الشعراء بما يلي:

قَتْلُ امرِئٍ في غـــابةٍ جـــريمـــة لا تـــغـــتـــفـــر
وقتـــل شعب كامـــل مسألـــة فيـــهـــا نـــظـــر!

لذا سرعان ما تتراجع الصور المبهجة في فقرات من هذا القسم، حين تغمرها الذكرى بصور الجرائم الاستعمارية في المعمورة كلها، وفي مقدمتها جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

ويتوج الكاتب رحلته ب قسم ثالث عنوانه من (وحي الرحلة) وقد جاء في شكل تعقيب وتعليق، عن تواريخ، وقضايا، ومواقف، وفيه أدرج الكاتب (قصيدتين طويلتين) له، **أولاهُما** في (110) مائة وعشرة أبيات بعنوان

"**فرصوفيا المحطمة**"، صور فيها أحاسيسه ومشاعره من ألوان الدمار الشامل الذي أصاب المدينة في (الحرب العالمية الثانية)، ثم صوَّر المدينة الجديدة الناهضة من الحطام والخراب والدمار.

أما **القصيدة الثانية** فقد صور ما تَخيَّلَهُ من مشاعر وهموم وأشواق باتت رابضة على قلب رفيقه (الحفناوي هالي) بعد اللقاء بالفتاتين، فيختلق خيالُ الشاعر حُجة للغوص في عالم صاحبه النفسي الخفي، بعد ما أخلد هذا للنوم وشرع يحلم فيما كان رأه وشاهده في اليقظة على أثر تلك الأمسية. فيزعم (الكاتب) أنه اخترع "جهازا" يجس به ما كان يدور في نفس صاحبه، بعدما "استسلم للنوم" وبدأ يحلم ويستعرض ما مرَّ عليه في تلك العشية، قال :"ركَّبتُ له الجهاز ليسجل ما يدور بخلده، ويهفو له قلبه، وتتطلع إليه نفسه من آمان عذاب..." وكانت القصيدة بعنوان "**شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو**" كما سبق، يقول من جملة ما يقول فيها :

أُمسيـــة ما إن رأيت كمثلهـــا فيما مضى من سالف الأزمان
ذقتُ الهوى فيها فأنعش مهجتي وسقى فؤاد المِهْيَفِ العطشان
وشَرِبْتُ من ماء الحياة فأينعتُ أوراق حبي الذابل الأغصان
الحـــب إكسير الحيـــاة ومن يعش بسوى محبة عاش في نسيان

وهي قصيدة عذبة جميلة، بلغة موحية، بمضمون إنســـاني رفيـــع، تقع في (102) اثنين ومائة بيت يختمها النائم الحالم تحت (جهازالمراقبة) لصاحب الرحلة بقوله –بعد التوبة والإنابة–:

خمسون عاما من حياتي تنقضي بتـعلـمٍ وتـفـهُّـمِ القـرآن
واليوم تعصف بي عواصف فِتْنَةٍ هوجاء من نفسي على إيمانـي
وارحمتا للشيـخ يهفـو قَـلبه بصبابـة للناعـس الأجفـان
رُحماك ربي لا تؤاخذ من صبـا رحماك، كم للحب من سلطان
رُحماك إني إن صَبَأتُ فلـم أُرِد غير الصبابـة للصبـا الرَّيَّانِ
أنت الجميل وكـل مـا أبدعتـه حقـا جميـل فاتـن أغـراني

وقد أدرج صاحب الرحلة في هذا القسم تعريفا ببولونيا ذا طابع تاريخي جغرافي، اجتماعي سياسي، اقتصادي سياحي كذلك، كتب بعضه إبان الفترة التي كتب فيها الرحلة، وكتب أهمه بعد السبعينات لقرينة مرجع استعمله فبدا هذا الموضوع مكملا من الزاوية العلمية للرحلة، وليس من الناحية الأدبية الفنية الخالصة.

من هنا تنبغي الإشارة إلى منهج الأستاذ (محمد الصالح رمضان) الرحالة في كتابته هذا الفن الأدبي، فقد بدا ساعيا بين منهج القدامي في حرصهم على الجانب التعليمي (تاريخا وجغرافيا واقتصادا وسواها) وبين أسلوب الرحالة الحديث، خصوصا الأديب في حرصه على تسجيل مشاعره وانطباعاته المختلفة سلبا وإيجابا، من دون تقيد بما يمكن أن يثبت أو ينفي صورة سلبية أو إيجابية، لأن ذلك موقوف على تجربة الكاتب وعلاقته بالمحيط، وطبيعة الاحتكاك بالناس، وظروف الصلة التي غالبا ما تكون عرضة للخطأ والصواب... فتترتب عنها أحكام وانطباعات قد تكون صائبة في موضع وزمان، وخاطئة في زمان آخر، وربما في نفس الموضع.

لقد بقي (محمد الصالح رمضان) المعلم –أكثر من أربعين سنة– والمؤلف الجغرافي حاضرا في هذا التقسيم فالنزعة التعليمية والتاريخية الجغرافية وراء ذلك، وهي التي جعلته يقول عند الحديث عن مرحلة العودة: "لم أعرف بفرنسا كما فعلت بالدول التي مررنا بها لأنها معروفة لقرائنا أكثر من تلك الدول"، وهذا مما يجنح به إلى المدرسة القديمة في أدب الرحلات التي لا تقنع بالانطباع العام أو المحدود في الاحتكاك المباشر بوجوه الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، بل تنحو نحوا يجعل من الرحلة عملا تاريخيا، لا مجرد وثيقة، كنوع أدبي مساعد، مثل الأنواع الأدبية الأخرى، لقد بقي الأستاذ (رمضان) الأديب الفنان متواجدا عبر ذلك كله في الأسلوب الأدبي، في نقل الصور الفنية الدقيقة، وإعلان الانطباعات الموحية التي لا يخطها إلا قلم أديب فنان مبدع، دق إحساسه، واتسع خياله، وامتلك أدوات تعبيره.

لقد عبرت هذه الرحلة عن تجربة إنسانية ذات عمق مختلف الأبعاد (سواء الشخصية منها أو العامة)، ورغم حرص الكاتب في رحلته على إفادة قارئه بمعلومات علمية (تاريخية وجغرافية وسياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية) فإن ذلك لم يجعل منها نصا تاريخيا جافا، كما لم يحل بينها وبين الظلال الإنسانية التي حَفَلَتْ بها كرحلة معاصرة، مثلما لم يحل بينها وبين الطلاوة المرغوبة في كل رحلة أدبية معاصرة في الجزئيات الصغيرة نفسها، والكاتب يلوذ بالتأمل في منظر طبيعي، أو في حركة إنسانية، أو في عناق حميمي بين زرقة البحر، واخضرار الطبيعة على الساحل، وما يتخلل ذلك مع مغان جميلة ساحرة أو من علاقات إنسانية ودودة في سمو رفيع، أو من

انسياب القطار في السهول والجبال في الظلمة الحالكة كخيط ضوء دقيق يشق العتمة في صمت مطبق -يعطي اللحظة نكهتها، وجمالها وجلالها.

والرحلة بذلك وبسواه مما قيل ومما لم يقل مَعْلَم من معالم الرحلة الجزائرية الحديثة في القرن العشرين التي اتجه أصحابها إلى أوروبا، فلم يعلن صاحبها انبهارًا تاما بحضارة، ولا دعوة إلى مذهب، وإن أشاد بقيم الجد والعمل، بل صوَّر واقعا وبلدانا حرة أو متحررة حديثا، وفي نفسه آمال وأشواق إلى تحرر وطنه من الاحتلال الفرنسي، فعكست الرحلة في جميع الحالات شخصية صاحبها كأديب أو كاتب (عموما) مهموم بقضايا أمته العربية الجزائرية، كما تأخذ بلبه المواقف الإنسانية الإيجابية والصور الجميلة، مثلما يَتْرَع قلبَه الشوقُ إلى الخير، والحب يملأ عالم الناس، وقد اغتسلوا من أدران الحقد وإدارة الإبادة والدمار. خلال ذلك وهذا وغيره يكتشف القارئ في صاحبنا شغف الرحالة، وعقل المؤلف، ونزوع الجغرافي، وتفكير المعلم وأسلوبه، وروح الأديب وأدواته، يطربه المنظر الجميل، وتهز وجدانه الصور الموحية، واللمحة الدالة، فيصور ذلك بلغة أنيقة، حتى وهو يقدم حقيقة علمية أو صورة طبيعية مألوفة، وهو مما يجعل هذه الرحلة إضافة نوعية، في مسار أدب الرحلة الجزائرية خلال هذا القرن الذي ينتظر مزيدا من جهد الباحثين واجتهادهم.

د. عمر بن قينة

بلدية دراية -الجزائر- في 1416/05/25هـ

الموافق ليوم 1995/10/20م

تقديم آخر للأستاذ الأديب
الشيخ حمزة بوكوشة

اطلع أستاذنا الأديب الشيخ حمزة بوكوشة على القسم الشعري من هذا الكتاب فتفضل بتقديمه بهذه الكلمات مشكورا.

عرفت الأستاذ محمد الصالح رمضان أول ماعرفته من تلامذة الجامع الأخضر، فكان من التلامذة الجادين النابهين، وعرفته مربيا في مدارس جمعية العلماء، وفي مدرسة ابن باديس بقسنطينة بالخصوص (التربية والتعليم)، التي تعتبر أم المدارس، فكان من أنجح المربين وخيرة المعلمين، ومن أجل ذلك أسند إليه أستاذنا الشيخ البشير الإبراهيمي الإشراف على مدرسته (دار الحديث) بتلمسان، فكان من خيرة المعلمين والمديرين. ولمدرسة (دار الحديث) من بين مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شأن وأي شأن، فكانت محل الرعاية والعناية لوجودها في تلمسان التي هي من مراكز الإشعاع في العالم الإسلامي فيما مضى من الزمان، ولوجودها في الطريق الموصلة إلى مدينة فاس، حيث توجد كلية القرويين الشهيرة، والشيء يكتسب الرفعة بالإضافة أو بالمجاورة.

وعرفته مديرا للتعليم الديني في أول وزارة للأوقاف بعد استقلال الجزائر، فكان من أولى الحزم والعزم والمبادرة. وفي عهده أنشئت (المعاهدة الإسلامية) التي قامت بدور عظيم في التعريب والتعليم الإسلامي. وكان أولْ من فكر وسعى في إحياء التراث الإسلامي الجزائري، فقام بنشر وتحقيق إملاءات أستاذه الشيخ ابن باديس في (العقائد الإسلامية) الذي طُبِع مرات بتقديم العلامة أستاذنا الشيخ البشير الإبراهيمي. ثم اشترك مع أحد الأساتذة الأزهريين (توفيق شاهين) الذين كانوا يشتغلون بالتدريس في المعاهد الإسلامية، تحت إشراف وإدارة الأستاذ محمد الصالح رمضان في وزارة الأوقاف، فاشتركا في طبع ونشر بعض الكتب المدرسية للمعاهد الإسلامية مثل (النصوص الأدبية) في أربعة أجزاء وغيرها...

واشتركا في النشر والتعليق على آثار إمام النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس، التي أخرجاها من مجلته (الشهاب) كمقالات، فجمعاها ورتباها كتبا محققة بعنايتهما، فطبعا له : (تفسير ابن باديس) و(من هدي النبوة) و(رجال السلف ونساؤه) و(من القصص الهادف) وهي لعمري أعمال جليلة تذكر فتشكر[1] واعترضتهما صعوبات مادية وأدبية فتغلبا عليها، وقد نجح

(1) نعم كان ذلك من عشرين سنة خلت، وقد أعيد طبع بعضها كالتفسير والعقائد مرات وتناولها الكتاب والدارسون بالبحث والتحليل مثل : علي مراد بفرنسا ومحمود قاسم بمصر وحسن السلوادي من الأردن وغيرهم فوضعوا عنها كتبا قيمة، وما تزال محل اهتمام الباحثين والدارسين من الأساتذة والطلاب.
وجمع الأستاذ عمار طالبي وشركة (مرازقة. بوداود) آثار ابن باديس في أربعة أجزاء كبار، كانت خير مرجع لكل مهتم بآثار أستاذنا الإمام، ثم جاء أحد المسؤولين الإضافيين في اللجنة المركزية بصفته وزيرا للقطاع الديني فأعاد طبع ما قمت به من هذه الآثار مستغلا منصبه ومكانته دون أدنى إشارة إلى من سبقه في نشر هذا التراث، وبلا مراعاة للأعراف والقيم والقوانين، وكأنه هو أول من اكتشف هذا الكنز الثمين الدفين وأظهره للناس، ولم يكتف بهذا فاحتكر طبع هذا التراث ومنع غيره من الجزائريين الاشتغال به وطبعه مدعيا أنه الأحق والأولى بهذا التراث بحكم المنصب على حد قول أستاذنا الإبراهيمي : **أوحى له المنصب والكرسي منزلة ما نالها إنسي**
أو كما قال مَن لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم :"إذا لم تستح فاصنع ما شئت"

عملهما هذا الجماعي، إذ قلما ينجح عمل جماعي بين علماء الجزائر وأدبائها لتغلب النزعة الفردية، وأظن أن نجاحهما راجع إلى أن أحدهما من الجزائر والآخر من مصر. هذا إلى جانب طبع آثاره هو : الأدبية والعلمية التي منها : ألحان الفتوة والناشئة المهاجرة وجغرافية الجزائر والعالم العربي والخنساء ومغامرات كليب وشهيد الكلمة حوحو. هذا هو الأستاذ محمد الصالح رمضان الذي نقدم لقرائه اليوم كتابه الأدبي هذا (سوانح وارتسامات عابر سبيل). والذي يقرأ هذه السوانح وخاصة الجانب الشعري منها من الشباب تغريه بانتهاب اللذات، والذي يقرؤها من الشيوخ تذهب نفسه حسرات على ما فات، وهيهات هيهات. أما صاحبها الأستاذ محمد الصالح رمضان الذي :

تراه من الذكاء نحيف جسم عليه من توقده دليل

فما ألهته هذه السوانح والارتسامات، ولا أغرته تلك المناظر واللقاءات عن حب الجزائر ولا أنسته في شعبها، وقد تركهما في السنة الأولى لحرب التحرير الجزائرية يعانيان ما يعانيان. فتذكرهما هناك في مهرجان فرصوفيا وقال :

إني ليؤلمني التذكر كلما ألفيت نفسي في حمى وأمان
والقوم خلفي في جحيم هائل يتقلبون على لظى العدوان
وأنا السليم وأمتي في أرضها تصلى عذاب الهون في ألوان
لا كان هذا السم مادام العدا في غيهم والقوم في بُحران

هذه نظرة خاطفة في هذه السوانح وصاحبها، وللقارئ الكريم بعد ذلك رأيه وحكمه.

الجزائر، حمزة بوكوشة

كلمة الأستاذ الأديب محمد جريدي

وهذه كلمة أخرى لأحد جيراني في السكن الأستاذ الأديب محمد الجريدي، زارني مرة فوجد أمامي مخطوطة هذه السوانح، فقال ما ذلك؟ قلت كراسة فيها خواطر وملاحظات على رحلة قمت بها إلى بلد اشتراكي في أروبا الشرقية، فرجاني الاطلاع عليها، فأعرتها له، وبعد أيام أعادها لي مع هذه العبارات الرقيقة بعد التحية والديباجة:

...ما أحلى ذكريات الشباب، ذكريات المرح والأنس، ذكريات الحياة الزاهرة، والفرص النادرة، ذكريات الود والوفاء، مع إخوان الصفاء، وقد ألهمت قرائح فوصفتها في سوانح يتسلى بها الغادي والرائح، وما سوانحكم الرائعة إلا متعة للأديب والشاعر، لما فيها من ألوان للفنان، وجمال للعاشق الولهان، إنها ثرية بالحقيقة والخيال، دالة على مواطن الحسن والجمال، جديرة بالاطاع والمطالعة، ولا عجب فإن صاحبها ذوباع طويل في شتى المعارف، وصنوف الطرائف، وقد سنحت له رحلة إلى ربوع الأصدقاء في زمرة من الأدباء الظرفاء، فلله در صاحبها وإلى اللقاء معه في سوانح أخرى، مع أجمل التحيات وأطيب التمنيات.

أخوكم محمد جريدي

مقـــدمة المؤلف

أدب الرحلات فرع هام من فروع الثقافة العامة والمعرفة الشاملة يجمع بين الأدب والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعلوم الاجتماعية بما فيها : الدين والأخلاق والسياسة ونظم الحكم والتعريف بالشخصيات وما إلى ذلك من شؤون الحياة العامة، وقد أجاد فيه أجدادنا العرب والمسلمون عامة وتفوقوا فيه، وعلى الخصوص المغاربة الذين كانوا يقطعون المسافات البعيدة من الأندلس والمغرب العربي إلى المشرق، وخاصة إلى مكة والمدينة وبيت المقدس.

فالحج إلى الأراضي المقدسة، وطلب العلم كانا السبب في حب الارتحال على بعد الشقة وعظم المشقة، كما كان حب الانتجاع والرعي السبب في التنقل والارتحال للعرب والبربر على السواء قديما وحديثا.

وقد يتجاوزا الحجاج الأراضي المقدسة إلى عواصم الخلافة في بغداد ودمشق والقاهرة والآستانة، أو إلى أبعد منها كالسوادين وبلاد الفرس والهند والصين.

كما فعل رحَّالتنا المغربي الكبير (ابن بطوطة)، الذي فاق (ماركوبولو) وغيره من كبار الرحالة العالميين، فاقهم في الصدق ودقة الوصف وفي طول المدة التي قضاها في الارتحال، وتمتد رحلته إلى أكثر من ربع قرن، وفي اتساع الرقعة التي طافها، وتتمثل في معظم العالم المتحضر في وقته. فقد وصل في تطوافه من طنجة والاندلس والسوادين، إلى بكين من بلاد الصين وإلى ماليزيا وجزر الفلبين، زار أرجاء العالم الإسلامي المعروف في وقته، في آسيا وإفريقيا وأروبا في وقت لم تكن فيه سيارة ولا طيارة، ولا كانت الطرق مأمونة.

من أشهر رحلات المغاربة غير رحلة ابن بطوطة : رحلة أبي حامد الغرناطي في أسفار البحار، ورحلة ابن جبير الأندلسي إلى المشرق العربي، ورحلة ابن سعيد إلى غرب إفريقيا، ثم رحلات: العبدري والعياشي والورثلاني و..و..الخ، والرحلات تعتمد على تسجيل مشاهدات وانطباعات الرحالين، وفيهم العالم المتخصص في بعض العلوم، والأديب، والسياسي، والمؤرخ، والسائح والتاجر الخ..

فالرحلة مصدر من مصادر المادة العلمية التي تفيد الباحثين، ويعتبر صاحبها شاهد عيان، وكُتُب الرحلات غير كُتُب التاريخ والجغرافيا ونُظُم الحكم والتراجم والسِّيَر ونحو ذلك من الكتب المتخصصة، ولكن يكون فيها شيء من كل ذلك حسب هواية الكاتب وميوله واهتماماته، وكلما اتسعت معارفه وكثرت تجاربه أعطت رحلته قيمة أي قيمة.

وفي هذه الرحلة العصرية (سوانح وارتسامات عابر سبيل) يقف القارئ على نتف وطرف من السياسة والأدب، ومن التاريخ والجغرافيا، وحتى الدين والاجتماع، زيادة عن وصف المشاهد، وذكر الانطباعات، وبعض المناقشات والمحاورات التي وقعت في هذه الرحلة العابرة الملأى بالعبر، والآراء والفكر، وفيها خواطر تسر الخاطر، ومناظر تبهج الناظر. نُحْيِي بها أدب الرحلة الذي اندثر أو كاد يندثر في مغربنا العربي، والله المستعان.

محمد الصالح رمضان

بين يـــدي هذه السوانـــح

بعد مضي نحو سنة من اندلاع ثورة التحرير الجزائرية المباركة وبالضبط في جويلية من سنة 1955. أتيح لي (مرة ثانية)[1] الخروج من هذا القفص الاستعماري الكبير الذي دعوه (الجزائر الفرنسية) والذي عشت فيه قرابة أربعين سنة مثلما عاش أبناء وطني في الكبت والتضييق والإرهاق، وفي جهل وفقر وتخلف لا يطاق، حيث الحرمان من كل ما يتمتع به بنو الإنسان، من حرية وكرامة وهناء، مع وفد صغير من منظمة (الكشافة الإسلامية الجزائرية) التي كنت من مرشديها ومسيريها، ضمن عدد من منظمات الشباب الجزائري الثقافية والفنية والرياضية، إلى (مهرجان الشباب والطلاب) الخامس بفرصوفيا (وارسو)، الذي جمع مئات الألوف من شبيبة العالم وطلابه المتطلعين إلى الاخوة والسلام والصداقة والوئام بين الشعوب بعد حرب عالمية طاحنة.

---

(1) كانت المرة الأولى في السنة التي قبل هذه إلى إسبانيا، ثم تلتهما رحلات قصيرة إلى الشرق العربي وإلى الغرب الأوروبي ثم إلى أقصى الشرق إلى الصين وعاصمتها بكين.

وهو مؤتمر عالمي للسلم والتآخي ينعقد كل سنتين في عاصمة من عواصم العالم الاشتراكي وكان شعار هذا المهرجان –وهو الخامس– (السلم والمؤاخاة)، وكانت المهرجانات التي سبقته قد وقعت على التوالي في : براغ سنة 1947، وبودابست سنة 1949، وبرلين سنة 1951، وبوخارست سنة 1953، وهذا الأخير في وارسو سنة 1955، وكلها تندد بالحرب وتدعو إلى السلم والاخوة والوئام.

وكان انعقاد هذا المهرجان الخامس من آخر جويلية إلى منتصف أوت سنة 1955 في عاصمة بولونيا (بولندة) التي ذاقت من ويلات الحرب العالمية الثانية ما لم يذقه وطن وشعب آخر في أوروبا، ربما حتى (ألمانيا النازية) نفسها التي ابتدأت الحرب منها وانتهت فيها. فقد مرت عجلة الحرب على بولونيا ذهابا وإيابا مخربة ومدمرة بين عملاقي الحرب (روسيا وألمانيا) كرًا وفرًا، حتى أتت أو كادت تأتي على كل قائم فيها وكأنها بين شقي رحى تطحنها.

استقبلنا الشعب البولوني وحكومته الناشئة أحسن استقبال في عيد استقلاله العاشر، كما يستقبل أعز الضيوف وأغلى الزوار.

* * *

سجلت في هذه الرحلة ما عنَّ لي من آراء وخواطر وملاحظات، على ما رأيت وسمعت ووقفت عليه، كما رسمت بعض الصور والمناظر، وألقيت بعض الأحكام والاستنتاجات الإنية من وحي الخاطر، فجاءت نبضات قلب في كلمات، وخطرات فكر في صفحات، وتأملات شاعر في وقفات. لا أنشر هذا

اليوم لأنه أدب رائق أم فن فائق، أو لأن بعض الإخوان والمعارف أَلَحُّوا عليَّ في نشره وإذاعته، لما فيه من متعة أو منفعة، كما قد يحلو للبعض أن يقول. بل لأنها سوائح عابرة عنت لي في ظرف خاص من رحلة مخصوصة، سجلتها كما جاءت بلا مبالغة أو تهويل، ومن غير بهرج وتطويل، مع وصف بعض المناظر والمشاهد التي رأيتها ووقفت عندها، بقيت مطموسة كل هذه المدة لم تر النور. فأحببت نشرها تخليدًا لصورة من تفكيري إذ ذاك. وأنا أحب الاطلاع على آرائي السابقة من حين إلى حين، لأتأمل نفسي، كمن يرى صوره الفوتوغرافية في مراحل حياته، أو كمن يتفرس ملامح وجهه أمام المرآة، وهو لا يجهل تقاسيم وجهه، ليرى وسامته أو دمامته، أو يرى كلوح وجهه وانطلاق أساريره.

وقد لا يمنع هذا من بعض اللمسات والتحسينات مما لا يتعارض وأصل الفكرة ولا يغير شيئا من صميم الموضوع، كمن يهتم بتصفيف شعره أو تعديل هندامه، مما لا يؤثر في سمات وجهه وملامح شخصه فجاءت كما أحب : خواطر تشرح الخاطر، ومناظر تبهج الناظر.

ولم لا أذكر سببا آخر أيضا دعاني إلى نشر إنتاجي؟ ذلك أنه لما حيل بيني وبين متابعة نشر سلسلة (من تراثنا الخالد) التي بدأتها ببعض آثار أستاذي الشيخ ابن باديس، فطبعت منها خمس كتب وفي نيتي متابعة الموضوع مع غيره بقدر ما يتيسر لي من وقت وإمكانات محدودة، فقد احتكرتْ هذا الموضوع دائرة معينة (أو شخص مُعيَّن فيها)، ومنعوا المبادرات الحرة الجزائرية أن تتنافس في بعث آثارنا ونشر تراثنا. وسمَحتْ في نفس الوقت

للأجانب، مغاربة وتونسيين ولبنانيين وغيرهم من تجار الطباعة والنشر بطبع ما شاءوا من تراثنا، ثم استغلالنا بعد ذلك ببيعه لنا، فطبعوا مثلا: المعيار للونشريسي، ورحلة الورثلاني، وتعريف الخلف برجال السلف وعنوان الدراية وتحفة الزائر و...و...وإلخ. بمباركة وتأييد من مسؤولينا في قطاعي : الثقافة والشؤون الدينية؛ فكان هذا المنع من الأسباب التي حفزتني لنشر تراثي –إن صح هذا التعبير– لذلك عدت إلى إنتاجي الذي ظل ضائعا مشتتا هنا وهناك بسبب تنقلي في العمل في ميدان الحركة الإصلاحية ونشر اللغة العربية، فقد كنا في حركة (جمعية العلماء) كالعرب الرحل تجوب البلاد طولا وعرضا لا يكاد يستقر بنا المقام في مكان، نبني ونشيد دعائم شخصيتنا الجزائرية، التي انهدت أمام ضربات الاستعمار (أو الاستدمار كما يسميه الأخ مولود قاسم)، وندعو إلى الخير والعمل الصالح، وإلى وحدة الصف ونبذ الخلف رغم العراقيل والمتابعات والعقوبات الاستعمارية..

فانكببتُ على أوراقي المبعثرة في كل مكان أجمعها من هنا وهناك وأنفض عنها الغبار وأرتبها، وأختار الصالح منها للنشر، فأُعِدُّه للطبع[1] ومنها هذا الأثر الأدبي الذي مر عليه نصف قرن، فأخرجه من الديجور إلى النور، بعد مراجعته وتهذيبه بطبيعة الحال رغم أن الأحداث تجاوزته. وهو يتألف من ثلاثة أقسام : الأول (وصف الرحلة)، والثاني (مدينة المهرجان)، والثالث (من وحي الرحلة) ومعظمه شعر قلته فيها وقد ضاع لي بعضه، وما بقي منه كاف لإعطاء صورة لتلك الرحلة.

---

(1) كما فعلتُ مع : (مغامرات كليب) و(الخنساء) و(شهيد الكلمة أحمد رضا حوحو)

* * *

وليعرف القارئ الكريم الظروف التي وقع فيها مهرجان الشباب وكتبتُ فيها هذه الرحلة، أذكر بعض الأحداث العالمية الهامة التي حدثت قَبيل وبُعَيْد الرحلة التي كانت تشغل الناس إذ ذاك وأنا واحد منهم، والإنسان ابن البيئة والوقت يتأثر بهما.

في سنة 1954 عقد (مؤتمر جنيف) لإنهاء حرب الفيتنام التي دامت نحو سبع سنين بين الفرنسيين والوطنيين بعد معركة (ديان بيان فو) الفاصلة، وبعد ذلك بثلاثة شهور ونصف اندلعت ثورة التحرير الجزائرية.

وفي سنة 1955 عقد مؤتمر (باندونغ) بأندنوسيا ضم وفود 25 دولة من إفريقيا وآسيا بزعامة سوكارنو ونهرو وشواين لاي وعبد الناصر، وأعلنوا موقفهم ومسؤوليتهم أمام المعسكرين العظيمين بزعامة روسيا وأمريكا اللذين سَعَيَا إلى اقتسام العالم إلى مناطق نفوذ واستغلال، وبث سيطرتهما على ما يمكن من شعوب العالم.

وتمت الموافقة في المؤتمر على دعوة (جبهة التحرير الجزائرية) للمشاركة فيه كعضو مراقب، وهو أول (مؤتمر دولي) يعلن تأييده لحق الجزائر في تقرير المصير والاستقلال، تبع ذلك فتح مكاتب للجبهة خارج الوطن العربي في نيويورك ونيودلهي وجاكرطا وجنيف الخ...

وفي نفس سنة 1955 قرر مؤتمر (باندونغ) الاهتمام بالشبيبة واختار لها يوم 24 أفريل عيدا كل عام، لتدارس أوضاعها وتفهم متطلباتها وتطلعاتها، فهي أمل المستقبل وعليها المعول. وفي بداية سنة 1956 انضم الرئيس

اليوغسلافي (بروز تيتو) إلى زعماء إفريقيا وآسيا الأربعة، لدراسة الوضع العالمي وإمكانية نشر فكرة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، بدلا من إنشاء معسكر ثالث في مواجهة المعسكرين أو الانحياز إلى أحدهما، ثم تبلورت الفكرة في (حركة عدم الانحياز) التي شملت أيضا أمريكا اللاتينية وصارت تمثل ما يعرف اليوم بالعالم الثالث، هذا ملخص أهم الأحداث العالمية في ذلك الوقت.

القسم الأول

الرحلة إلى بولونيا

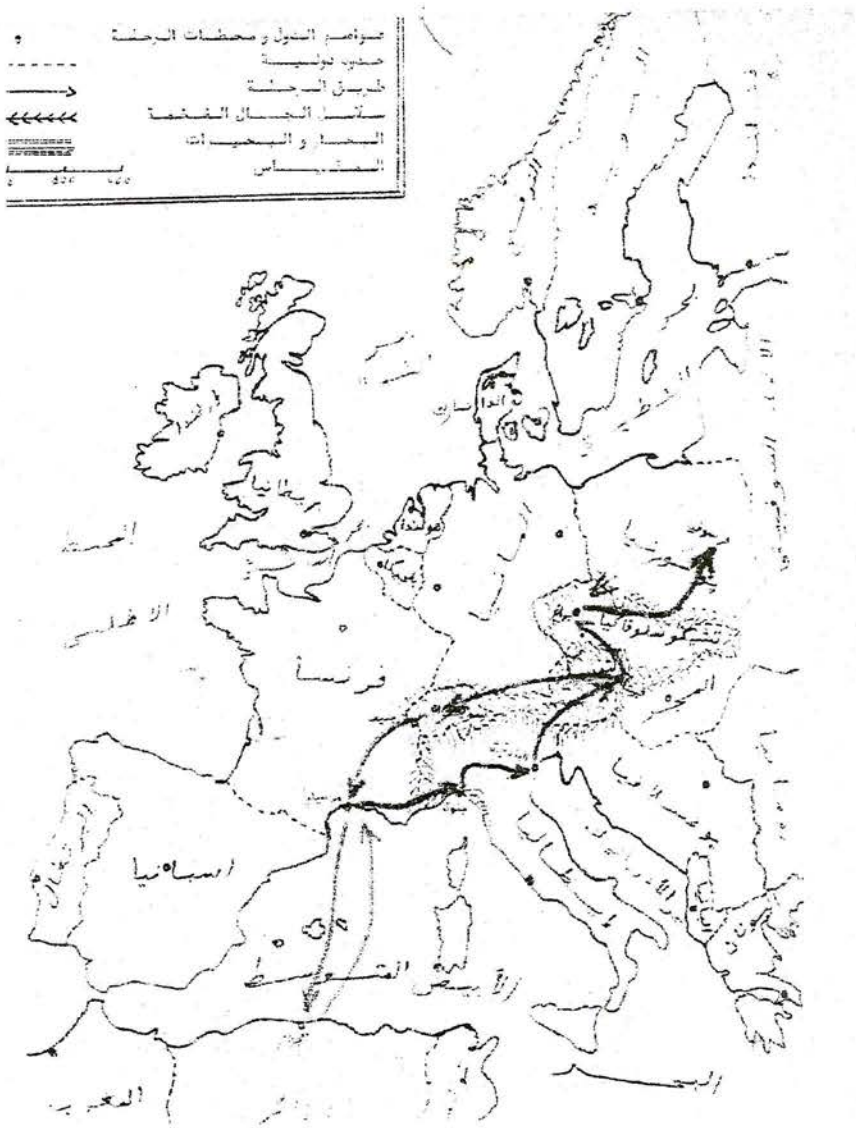

الخريطة التي يوضح فيها المؤلف رحلته

من الجزائر إلى فرصوفيا ذهابا و إيابا – 1955

الاستعـــداد للـــرحلة

قامت الشبيبة الجزائرية بالتعاون مع فرع (اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي) ومختلف منظمات الشبيبة والطلبة في الجزائر بقدر ما تسمح لها ظروف الحرب القائمة في البلاد (حرب التحرير الجزائرية التي قامت من بضعة شهور) باستعدادات هامة لتشارك في (مهرجان الشباب والطلاب العالمي) الذي سيعقد هذا العام في فرصوفيا (وارسو) عاصمة بولونيا (بولندة)[1].

فنظمت اجتماعات ولقاءات محلية وجهوية، اختارت خلالها أحسن العناصر في الفرق والمنظمات والهيئات من الشبيبة والطلبة ومسؤوليهم للمساهمة في تدشين وتأمين عهد جديد من الحرية والسلم والتآخي بين الشعوب، بعد مرور عشر سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية، التي كادت أن تحرق العالم وتدمره، ونحو السنة على حربنا التحريرية، واختارت خير القطع والوحدات الفنية والأدبية : من أناشيد وطنية، وأغاني شعبية، وقصائد

---

(1) كان (اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي) المبادر الأول إلى لقاء الشباب والطلاب هذا الذي عرف بالمهرجان (festival) جرى في صيف عام 1947 ببراغ في تشيكوسلوفاكيا وما يزال يواصل نشاطه مع مختلف المنظمات الوطنية والدولية للشبيبة والطلبة في عقد هذه المؤتمرات والمهرجانات العالمية

وأشعار أدبية، وتمثيليات اجتماعية وهزلية، ورقصات وألبسة جزائرية إلى جانب أحسن المدربين واللاعبين في مختلف أنواع الرياضة من النوادي والجمعيات الرياضية المعروفة عندنا، لعرضها والمشاركة بها في هذا المؤتمر العالمي السلمي للشباب والطلاب.

بلغ عدد أفراد القافلة من جمعيات الشباب والطلاب وأعضاء الفرق والمنظمات الفنية والرياضية بما في ذلك وفد ممثلي الإذاعة الجزائرية، مائة وثلاثين شخصا(130)، اصطحبوا معهم فيلما وثائقيا عن الحياة العامة وأساليب العيش في الجزائر مع ألبسة وشعارات وطنية لتمثيل الجزائر في المهرجان. وشاركت أنا مع ثلة قليلة من قادة ومرشدي (الكشافة الإسلامية الجزائرية) فيهم: الخضر الدومي رئيسا الحفناوي هالي، عبد الرحمان رمضان، محمود بن محمود، محمد الطاهر حمادة، علي خياري وذلك لتأمين وتأييد الشبيبة العالمية لقضيتنا الجزائرية التي لا تنفصل عن قضايا السلم والحرية والأخوة في العالم وتصفية الاستعمار واستغلال الإنسان للإنسان.

بـــدء الرحـــلة

كان بدء الرحلة من عاصمة الجزائر يوم 1955/07/25.على متن باخرة فرنسية من البواخر التي تقوم بنقل المسافرين بانتظام بين مدينتي الجزائر ومرسيليا.

هذه ثاني مرة أعبر فيها البحر الأبيض المتوسط، فقد عبرته في السنة الماضية إلى إسبانيا في مثل هذا الشهر ولكن الوقت كان ليلا هذه المرة فلا

نرى جمال البحر وجلاله، إنما نرى الظلام الدامس والنجوم المتلألئة، ونحس بالجو المنعش وهواء البحر الندي في الصيف القائض الذي تركناه خلفنا في دواخل الوطن.

استسلم أكثرنا للنوم لتوفير الراحة للرحلة الطويلة التي ستستغرق أياما وليالي قبل بلوغ الهدف منها، ولكن النوم لم يأتني، فكنت أتأمل البحر وأهواله التي قرأتها في القصص والروايات، أو شاهدتها في الأفلام السينمائية ولكن الله من علينا بليلة جميلة كان البحر فيها رهوًا هادئا، تمتعنا بنسيمه العليل وجوه البليل، أنسانا حر الصيف القاري الذي تركناه خلفنا.

البحر الأبـــيض المتوســـط

كنت أفكر في هذا البحر المتوسط وقيمته ومكانته قديما وحديثا بين بحار الدنيا، فألفيته يمتاز عنها جميعا بأنه ملتقى استراتيجي عظيم الأهمية لا يدانيه فيها بحر من البحار، من حيث كونه يتوسط العالم القديم وتحضنه أقدم وأهم قارات العالم : إفريقيا وآسيا وأوروبا، فهو قلب الـــعالم النابض بالـــحياة من أقـــدم العـــصور إلى يومنا هذا.

فقد نشأت على ضفافه الحضارات والديانات والمدنيات، وعلى أمواجه انتقلت وعمت العلوم والمعارف من أول مرة في التاريخ، وعلى متنه عبرت البضائع والبدائع، كما سارت المذاهب والشرائع على اختلافها قبل غيره من البحار.

فهو مهد التاريخ البشري وهمزة وصل التعارف البشري، وصلة الربط بين الشرق والغرب، وقنطرة العبور والتبادل بينهما. عرف جميع الحضارات القديمة والحديثة، من مصرية وإغريقية وفنيقية وقرطاجنية، ثم رومانية وبيزنطية وعربية وتركية، إلى الحضارات الأوربية الحديثة، إسبانية إيطالية فرنسية إنكليزية أمريكية الخ...الخ كما عرف صراعاتها في حروبها.

ورأى أساطيلها الحربية والتجاربية وغيرها تمخر عبابه، سمي مرة بحر الروم ومرة بحر العرب، ومرات أسماء أخرى، ولكن اسمه الحقيقي (البحر الأبيض المتوسط) هذا الاسم الذي طابق المسمى وهو الاسم الثابت الذي لا يتغير. خاطبه مرة شاعر العصر في مصر أحمد شوقي بك متحسرا وناعيا على العرب الذين ضيعوه قائلا:

يا أبيض الصفحات والآثار ضُيِّـعْ مَـنْ أضـاعـك

الاستعمار الفرنسي

اجتزنا حوض البحر الأبيض الغربي من الجزائر إلى فرنسا في أكثر من أربع وعشرين ساعة، وهذه المسافة الشاسعة التي تعد سبعمائة كيلومترا وثمانمائة متر هي أوسع عرض له فيما أعلم، ورغم شسوعها لم يعتبرها الجشع الاستعماري الفرنسي حدا طبيعيا فاصلا بين أوربا وإفريقيا، عندما ادعى أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، فهي امتداد طبيعي لها في رأيهم -رغم البحر الأجاج الذي يفصل الوطنين والقارتين- فولايات الجزائر ولايات فرنسية، وشعبها شعب فرنسي وإسلامها إسلام فرنسي، وكل ما فيها فرنسي :

سماؤها، هواؤها، ماؤها وكل شيء فيها بلا استثناء، ثم إن كل هذا فرنسي من نوع خاص وبفهم خـــاص لا يعقله إلا الفرنسيون.

لا عجب في ذلك ولا غرابة فالجشع الاستعماري الفرنسي واستهتاره لا يثنيه ماء البحر الأجاج، ليضم إلى طعمه بعض الخراف والدجاج، ويستف رمال الصحراء الكبرى على استاعها وترواميها ليتمتع بلذة طعم رائحة نفطها، ونشوة رائحة غازها، وليحتوي على من فيها من بيضان وسودان، ويجعلهم فرنسيين اسما ولو كانوا ملونين، رغم الأبعاد الحسية والمعنوية القائمة بين الفرنسيين وهؤلاء، وسماها (الصحراء الكبرى الفرنسية) كما فعل مع إفريقيا الغربية وإفريقيا الاستوائية فسماهما (إفريقيا الغربية الفرنسية)، و(إفريقيا الاستوائية الفرنسية).

ومن يدري لعله يطمع أيضا في إفريقيا كلها لتصبح فرنسية، لولا معارضة استعمار آخر أوروبي له، يتمثل في الإنكليز والألمان والإسبان والبرتغال والبلجيك وغيرهم الذين تقاسموا هذه القارة وتنازعوا عليها ردحا من الزمن كأنها حق مشاع يثير الأطماع. وهمة الاستعمار لا تعترف بحد، ولا تقر ببعد، وقد لا يشبعه ابتلاع أوطان شاسعة واسعة أو قارة كاملة مثل : الهند أو كندا أو أستراليا بالنسبة إلى بريطانيا، ومثل الاستعمار اليوم الامبريالية التي لم يعد يقنعها الكوكب الأرضي بما فيه، فهي تطمع في امتلاك الفضاء واحتلال كواكب أخرى!! ... ولكن أما لهذا النَّهَم من هَمٍّ أو مرض أو آفة تقضي عليه؟ أما آن للشعوب المبتلاة بالاستعمار والامبريالية أن تقوم متحدة بنهضات عارمة وثورات كاسحة تقضي عليهما القضاء المبرم؟

أما الشعب الجزائري فقد نهض وتحرك أخيرا، ووضع حياته في كفه وقام من بضعة شهور بمحاولة طرد الاستعمار الفرنسي من بلاده بكل حزم وعزم وشجاعة في ثورته التحريرية، كلفه ذلك ما كلفه، متمثلا بقول عنترة العبسي رمز البطولة والنخوة العربية :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنضل
ماء الحياة بعزة كجهنم وجهنم في العز أكـــرم منـــزل

وقول شاعر العصر في مصر أحمد شوقي بك :

قف دون رأيك فـــي الحيـــاة مجاهدا إن الحياة عقيدة وجهاد

مرسيـــلـــيا Marseille

هذه مرسيليا أكبر مدن فرنسا بعد باريس تبدو لنا من بعيد، وهي بوابة فرنسا في الجنوب على البحر الأبيض المتوسط، تقع شرقي مصب نهر الرون، وغربي ميناء تولون، ذلك الميناء العسكري العتيد الذي هجم علينا منه جيش الاحتلال الفرنسي سنة 1830. ومن هذين الميناءين : المدني والعسكري توالت علينا قوافل الاستعمار والاستغلال والإذلال، كالجراد تستولي وتلتهم كل شيء بلا هوادة ولا رحمة، وقد تكبدنا منها المصاعب والمصائب والويلات طيلة قرن وثلث قرن، ذقنا فيها المذلة والهوان والاحتقار، وعرفنا فيها الجهل والفقر والحرمان، بعد العزة والسيادة والسلطان.

نزلنا مرسيليا فوجدنا الشبيبة الديمقراطية هناك قد رتبت الأمور وهيأت وسائل السفر لنا ولقوافل أخرى من فرنسا ومن شمالي إفريقيا (تونس

والمغرب)، جاءت لتشارك في المهرجان العالمي الخامس للشباب والطلاب، فألفينا أنفسنا وسط جمع غفير من المسافرين إلى فرصوفيا يعد بالمئات، وأخبرنا أن السفر سيكون غدا صباحا بطريق سكة الحديد الرابطة بين فرنسا وإيطاليا عبر الساحل ثم إيطاليا فالنمسا فتشيكوسلوفاكيا فبولونيا.

تجولت قليلا مع بعض الرفاق في الميناء وما يحيط به من أنهج وشوارع للتعرف على معالم المدينة الكبيرة، فلم أر فيها ما يلفت النظر كثيرا، سوى معالم المرسى الهام، والمدينة التجارية الكبرى التي تكنفها الجبال والتلال من ثلاث جهات، وأن الميناء يقوم على لسان من البحر طويل يتوغل في قلب المدينة كالسيف يقسمها نصفين متعادلين.

الساحل اللازوردي La côte d'Azur

من مرسيليا أخذنا القطار الذي سار بنا في اتجاه الشرق نحو الساحل اللازوردي حلم الفنانين والشعراء، ومصيف الكبراء والأمراء، مرورا (بتولون) أكبر ميناء عسكري لفرنسا على البحر الأبيض، يبعد عن مرسيليا بنحو ثلاثين كيلو مترا.

ثم مدينة (كان) التي ينعقد فيها سنويا أكبر مهرجان سينمائي، تعرض فيه الأفلام القصيرة والطويلة لمدة أسبوعين، يحضره الفنانون والمؤلفون والمخرجون من أطراف العالم، كما يحضره الصحفيون لتغطية أخباره ونشرها، وتمنح فيه الجوائز والشهادات للمجيدين والناجحين ثم هي من أهم محطات الاستجمام والراحة على هذا القسم من الريفيرا الفرنسية أو (الكوت

دازير) لجمال مناظرها الطبيعية ولاعتدال مناخها وهوائها، قال فيها أحد أدبائنا منكتا بعد ما شاهد ما فيها من متعة وافتتان : (من زار(كان) صار في خبر كان)، ثم (نيس) عاصمة منطقة (السافوة) وأجمل ميناء على ساحل الريفيرا الفرنسية.

وعلى ثلاثة كيلومترات منها في الجنوب الغربي توجد (مونتي كارلو) التي تجري فيها المهرجانات الشعبية التنكرية وغيرها، المدينة الساحلية التابعة لإمارة (موناكو) على بعد تسعة أميال شرقي (نيس). هذا وتشتهر (موناكو) بكازينو القمار العالمي الذي أثرى الكثير من الناس وأغرق الكثير في الفقر والإفلاس.

هكذا مررنا بالساحل الأزوردي مرور الكرام نتمتع بالنظر إليه من القطار، فنرى حمرة سقوف منازل المدن وبياض جدرانها، بين خضرة المزارع والغابات والأحراش، وبين زرقة البحر والسماء، في يوم مشمس منعش، والقرى الصغيرة والمغاني المنتشرة على ذلك الساحل الأخضر، فنتخيلها قطعا من الجواهر المختلفة الأشكال والألوان، منثورة على بساط سندسي من القطيفة الخضراء، يا لجمال المنظر الطبيعي الاخاذ.

الريفـــيرا الإيـــطالية

ثم دخلنا (الريفيرا) الإيطالية، وهي مثل الريفيرا الفرنسية جمالا وجلالا، وأشرفنا على خليج (جنوة) في آخر النهار، والشمس مائلة إلى

الغروب، وهي تلقي بأشعتها الذهبية على الخليج الحالم وما فيه، وتودع النهار بآخر خيوطها، فتضفي عليه جمالا فوق جماله.

ولسوء الحظ سنقطع الأراضي الإيطالية من أقصى غربها إلى أقصى شرقها في الظلام الحالك لا نرى شيئا، وكأن هذا الأمر كان مدبرا بإحكام من طرف الفرنسيين، لكي لا يغزو جمال المناظر الإيطالية، جمال وسحر مناظر الساحل اللازوردي الفرنسي.

جـــنـــوة Gênes

هذه جنوة هي اليوم من أهم موانئ إيطاليا في الشمال الغربي، رغم ما نالها من خراب ودمار في الحرب العالمية الثانية، عندما قذفتها بحرية الحلفاء بشدة وضراوة ووحشية بقنابل محرقة ومدمرة مهددة بذلك إيطاليا الفاشستية حليفة ألمانيا النازية، في عهد زعيميهما الطاغيتين: موسوليني وهتلر، فحطمت معالمها.

تعد (جنوة) رابع أو خامس مدينة في إيطاليا وهي الباب التجاري الغربي لسهل نهر البو (PO) الغني بإنتاجه الصناعي والفلاحي، تنافس (مرسيليا باعتبارها أعظم مرسى تجاري فرنسي في غرب البحر الأبيض، وتزاحم (البندقية) في شرقي إيطاليا على بحر الأدرياتيك.

تتراءى لنا من بعيد منحدر الأبنين (l'apinine) تذكرني بالمسارح الرومانية القديمة في بلادي، مثل، تيمقاد وجميلة وشرشال وقالمة الخ...وهي مدينة عظيمة، لم نرها للأسف الشديد إلا في آخر النهار، ومن خلال نوافذ

القطار عبر سكة الحديد التي تتحاشى ولوج المدن غالبا وإنما تمر على جوانبها باستحياء.

قد لا يهمنا كثيرا تاريخها القديم الحافل في هذه الرحلة العابرة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنها لعبت أدوارا عظيمة في التاريخ، وأنجبت مشاهير ونبغاء في عدة ميادين مثل كريستوف كولمبس البحار الذي اكتشف أمريكا، ومازيني السياسي المحنك، وبأغانيني الموسيقار الملهم. وأنها كانت عاصمة جمهورية قوية نافست غيرها كثيرا وكانت جزيرة كورسيكا تابعة لها قبل أن تكون لإيطاليا أو لفرنسا، وكذلك نيس ومنطقة السافوة كلها كانت من ممتلكاتها.

نبـــذة تاريخيـــة عن المنـــطقة

وما كاد القطار يخرج بنا من (جنوة) عبر مضائق ممر بوشيتا (Bouchitta) أهم منفذ إلى سهل نهر (البوPO) الخصب الفسيح في شمال إيطاليا، الذي تتجمع فيه كبريات المدن التجارية والصناعية. حتى نزل الظلام وغطى بردائه الأسود كل شيء واستمر القطار يتلوى في سيره كالثعبان طيلة الليل عبر المضائق والمنعرجات، وبين السهول والكثبان، واستسلم الركاب للنوم إلا القليل كان بين نوم ويقظة. كنت من هذا القليل الذي لم ينم، وداهمتني الذكريات من الماضي والحاضر لهذه المنطقة من الشمال الإيطالي وعادت بي الذكرى إلى ماض سحيق إلى 24 قرنا إلى الوراء، عندما نشأت دولة الرومان وأصبح لها شان أي شأن في البحر المتوسط، وأرادت أن تقضي على دولة قرطاجنة الإفريقية وسلطتها في البحر الأبيض وفي إسبانيا وشمالي إفريقيا.

وقد بدأت تشيخ وتهرم هذه الدولة الإفريقية الحضرية الديمقراطية، وتظهر عوارض الوهن والفتور في أوصالها والميوعة في مجتمعها، مما أطمع روما في محاربتها وإمكان التغلب عليها. ومع ذلك وقفت قرطاجنة بجيشها ومرتزقتها في وجه روما الفتية القوية عشرات السنين، وخاضت ضدها حروبا ومعارك طاحنة في البر والبحر، وأشهرها الحروب البونيقية، واشتهر في تلك الحروب قادة قرطاجنة العظام : هملقار برقة، وابنه حنبعل، وصدر بعل، وازربعل الخ ... وامتدت الحروب واتسعت ميادينها بين روما وقرطاجنة في البحر وفي إفريقيا وإيطاليا وإسبانيا والبلقان بلا هوادة عدة قرون.

هـــجوم حنبعـــل

وبالنسبة إلى هذه المنطقة التي يعبرها الآن قطارنا : سهول لا مبارديا (Lambardia) المحصورة بين جبال الألب وجبال الأبرين الشامخة الوعرة المسالك تحميها من كل هجوم معادي، ومع ذلك باغت روما منها القائد القرطاجني الكبير جنبعل بجيش عَرَمْرَم مكون من خيرة الفرق المدربة، واجتاز به جبال البرانس (البيريني) بشمال إسبانيا، ثم جنوب فرنسا فجبال الألب التي لم يجتزها جيش آخر قبله، وهجم على إيطاليا من حيث لا تحتسب بخيله ورجله، وبالفيلة والجمال التي لا تعرفها أوروبا، وبعتاده الضخم الثقيل، فكانت مباغتة مذهلة ارتبكت لها روما وأفقدتها رشدها، وارتاعت لها الشعوب التي مر بها.

دهش الجميع واحتار العالم كيف استطاع حنبعل اجتياز هذه الأبعاد الشاسعة والجبال الوعرة المنيعة، بذلك الجيش الضخم والعتاد العتيد؟ إن هذا

لا يكاد يصدق، ولكنه وقع بالفعل، وتعجب كل من سمع بهذا الصنيع المدهش الخارق للعادة، الذي نال به حنبعل شهرته العالمية بالإضافة إلى شهرة عبقريته العسكرية وبراعته في الخطط الحربية (ومنها هذه المغامرة)، وكذلك جرأته ونشاطه العسكري الدؤوب، ومفاجآته لأعدائه بما لا يتوقعون فلا عجب أن يعتبر أعظم قائد في التاريخ.

صـــراع بين إمـــاراتها

نشأت في هذه المناطق من شمالي إيطاليا إمارات وجمهوريات بل إمبراطوريات، لعبت أدوارا عظيمة في التاريخ، وغزت العالم برجالها وبإنتاجها ومصنوعاتها، مثل (جنوة) في الغرب و(البندقية) في الشرق بالخصوص اللتين شيدتا إمبراطوريتين تجاريتين كبيرتين، وأحرز تجارهما على ثروات طائلة وسطوة عظيمة في العالم، رغم النضال المستمر بينهما، وبين جيرانهما (وكذلك بعض المدن التي بينهما مثل : (ميلانو وتورينو وفيرونو) التي تمتعت برخاء عظيم، سيطرت به على الاقتصاد الأوروبي في فترات من الزمن بفضل نشاط بنوكها ورجال أعمالها، مما سبب لإيطاليا الحروب والعداوات مع الدول المجاورة الكبيرة كالنمسا وفرنسا وغيرهما من الدول المنافسة والمزاحمة، وقد تركت بصماتها في كثير من معالم الحضارة، وأحداث التاريخ في العالم، وإني لأذكر من ذلك على سبيل المثال ما كنت أعرفه في صباي بعد الحرب العالمية الأولى إلى بداية العشرينات، في قريتي النائية المعزولة في غربي جبال الأوراس، مما ينسب لمدينتي: (جنوة) و(البندقية) بالخصوص، فقد عرفت السكين الصغير الذي ينثنى نصله على

مقبضه، ونسميه (الجنوى) فهو مجلوب من (جنوة) أو مصنوع فيها، وعرفت السكر المطحون الندي الذي كنا نسميه (السكر البندقي)[1] ، فهو بلا شك مجلوب أو مصنوع في (البندقية) لذلك نسب إليها. هذا في قريتي البعيدة المجهولة فما بالنا بغيرها من قرى ومدن العالم في غير ذلك من المصنوعات والمنتوجات.

ومن تاريـــخها المعـــاصر

وفي التاريخ المعاصر كانت إيطاليا الموحدة دولة ملكية، ثم ظهرت فيها الحركة الفاشستية بزعامة الدوتشي (موسوليني) الذي استولى على الحكم بعد ذلك، وجعله حكما ديكتاتوريا يسير على هواه بين الحربين العالميتين.

وكان يحلم بإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية، فاعتبر البحر الأبيض منطقة نفوذ لدولته وإفريقيا متسعا حيويا لها، فهجم على ليبيا واحتلها، ثم قام بغزو الحبشة والصومال ثم ألبانيا فاليونان، ومن سخرية الأقدار أنه أعلن نفسه (سيف الإسلام أو حامي الإسلام) ظنا منه أن المسلمين مازالوا مغفلين يمكن تغليطهم بمثل تلك الدعاوي لاستغلالهم والتحكم فيهم.

وتحالف (موسوليني) مع (هتلر) زعيم ألمانيا النازية في سنة 1939 وعقدا حلفا عسكريا بين الدولتين المتطرفتين عُرِف بمِحْوَر : (برلين–روما). وصار الدوتشي لعبة في يد هتلر فوافقه على ضم النمسا إلى ألمانيا، ولما احتلت الجيوش النازية الألمانية فرنسا، أعلن موسوليني الحرب على فرنسا وبريطانيا المتحالفتين، وكان منتظرا منه أن يعلنها قبل ذلك بنحو السنة،

(1) وفي جهات أخرى من وطننا يعرف (بالسكر القندلي) ولا أذكر لهذا معنى إلا أن يكون منسوبا إلى مدينة (قندي) في جزيرة قريطش (Crète) والنسبة تركية لزيادة اللام فيها. كما في جزائر لي بدلا من جزائري وبغدادلي عوضا عن بغدادي..

ولكن الشجاعة كانت تنقصه، فكان هذا التوقيت في الإعلان منافيا للأخلاق ولقواعد الشرف! كما أعلن الحرب على روسيا وهي أبعد ما تكون عنه. وكان يحسب أن الحرب مجرد كلام وإعلان وانتهاء لمن يحب فلما واجهت قواته جيوش الحلفاء في شمالي إفريقيا منيت بالهزائم والخيبات المتتالية، وكان المفروض أن تحمي جيوشه هذه الجبهة وحدها دون مشاركة ألمانيا لاشتغال هذه بجبهات وواجهات أخرى أخطر وأوسع مع أوروبا كلها وروسيا، فلما تبين لهتلر ضعف حليفه وخوره، أمده بقوات ألمانية بقيادة الضابط الشاب رومل –ولكن بعد فوات الأوان– فوقعت هذه الجيوش بين نارين في ليبيا وتونس، لما نزلت قوات الحلفاء في شمالي إفريقيا وتوالت عليها الجيوش الأمريكية من الغرب في الجزائر ومراكش ومن الشرق الجيوش الانكليزية في مصر من فلسطين والأردن فانهزمت قوات المحور الثنائي (روما برلين) والتحقت بإيطاليا هاربة من إفريقيا. ثم دخلت قوات الحلفاء صقلية وإيطاليا، وكانت الحرب ضارية فأنشأ موسوليني جمهورية في الشمال الإيطالي (هذا الذي نعبره الآن)، وتتابعت الأحداث ضد موسوليني، فحاول الهرب إلى سويسرا بعد احتلال روما وتدهورت قواته وقوات حليفه في إيطاليا، ولكن قبض عليه من طرف مواطنيه وأعدموه يوم 1945/04/28، وبذلك انتهى الحكم الديكتاتوري الفاشستي الذي كونه موسوليني وانتهت محاولته إعادة مجد روما، واستثارة النعرة القومية والعصبية الدينية، وكما انتهت الفاشستية، انتهت بعد ذلك النازية، ثم ما شابههما من نظم الحكم العسكرية الديكتاتورية في إسبانيا وفي الأرجنتين والشيلي واليابان، وسيلحقها نظام سالسبوري العنصري في جنوب إفريقيا، وعصابة الصهاينة في فلسطين، والعاقبة بعد ذلك للإمبرياليين.

إيـــطالـــيا الـــيوم

حكومة إيطاليا اليوم جمهورية نيابية اسمها القومي (ريبوبليكا إيتاليانا) عاصمتها روما، يقوم نظام الحكم فيها على أساس برلماني مكون من مجلس منتخب للشيوخ والنواب لمدة خمس سنوات، يعين رئيس الدولة من حزب الأغلبية أو الأحزاب المؤتلفة، عملتها (الليرا)، وعلمها ثلاث قطع رأسية متساوية : (أخضر وأبيض وأحمر).

أرضها شبه جزيرة في شكل جزمة كبيرة طويلة تمتد بين البحر الأدرياتيكي والبحر الأبيض في اتجاه الغرب، يفصلها عن دول وسط أروبا قوس عظيم من جبال الألب في الشمال، يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب (760) كيلومتر، ومن الشرق إلى الغرب ما بين مائة ومائة وخمســين كــيلومترا، تتبــعها جزيرتان كبيرتان هما : صقلية وسردينيا في البحر الأبيض.

تحصلت بعد الحرب العالمية الثانية على مساعدات برنامج التعمير الأروبي (مشورع مرشال)[1] ، وانكبت تنشئ وتنشط الفرحة، وتقوم بالبناء

---

(1) مشروع أمريكي أنشئ في أعقاب الحرب العالمية الثانية لإنعاش الدول الأوربية الغربية، وهو يهدف في صميمه إلى وقف المد الشيوعي إلى أوروبا الغربية بتقديم المساعدات إليها لإعادة بناء اقتصادها، كان ذلك في البداية، ثم تحول إلى مساعدات عسكرية بعد احتدام النزاع بين الرأسمالية الغربية والاشتراكية العالمية وهو يضم الآن دول بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، النمسا، بلجيكا، الدانمارك، ايرلندا، أيسلندا، هولندا، النرويج، البرتغال، السويد، سويسرا، تركيا.
يقابله (مشروع الكوميكون) : المنظمة الاقتصادية التي تضم دول الكتلة الاشتراكية التي تتزعمها روسيا وبعد وفاة ستالين وتوقف سياسته التي كانت تحاول فرض النموذج السوفييتي في عمليات التحول الاقتصادي لدول المنظمة، بدأ (الكوميكون) نشاطه على المستوى العالمي، فشمل دولا أخرى مثل : يوغسلافيا، الصين، ألبانيا، فيتنام، كوريا، منغوليا، وأخيرا كوبا كأعضاء أو مراقبين

الذاتي وترمم ما حطمته الحرب والحكم الاستبدادي الفردي الديكتاتوري، فنجحت وحولت الانكسار الحربي إلى انتصار اقتصادي.

وانضمت إلى اتحاد أوروبا الغربية سنة 1954، والسوق المشتركة الأوربية، ثم إلى الأمم المتحدة أخيرا سنة 1955، وهي الآن عضو في (حلف شمالي الأطلسي)، وأرضها قاعدة له من أهم القواعد في البحر الأبيض المتوسط.

أهم مدنها بعد روما : ميلانو، نابولي، تورينو، جنوة، البندقية، ثم ميناء تریاستا الحرة.

البندقية Venise

قطعنا طيلة الليل سهل لمبارديا (Lambardia) الغني الفسيح الذي يحتضن حوض نهر البو (PO) الذي تنتشر فيه أهم المدن الصناعية والتجارية في إيطاليا وأصبحنا من الغد في الطرف الشرقي لإيطاليا، نشرف على ساحل بحر الأدرياتيك (l'Adriatique) وبالضبط في البندقية أو (فنيزيا) كما يسمونها. وهي تقع في الخليج الذي يحمل اسمها.

نزلنا من القطار إلى المحطة، وبعد إجراءات السفر العادية أخبرنا بأننا سنمضي بها فترة استجمام وراحة تدوم نصف نهار، وبعد الغداء نستأنف السير نحو النمسا، ففرحنا وطربنا لهذه الفرصة التي تتيح لنا رؤية (عروس الأدرياتيك) عن كثب ذلك البلد السياحي الجميل ذي الشهرة العالمية، قبلة الأدباء والشعراء والفنانين. رحنا نغتنم الفرصة السانحة نطوف ونتجول في

أنحاء الميناء والمدينة وإن كنا لا نفرق بينهما لتداخلهما مضحين بالاستجمام والراحة وحتى الغداء إذا لزم الأمر، وخاصة الذين يعرفون قيمة هذه التحفة النادرة أو يسمعون عنها مثلي، أما الذين يجهلونها فقد أثروا الاستراحة في المقاهي والنوادي أو الاكتفاء بزيارة الأسواق والمتاجر إلى أن يحين وقت الغداء ثم السفر.

كنت في نفر قليل من الرفاق، نخترق كل شارع وزقاق، ونسترق ما فيها من مناظر البهجة والجمال والجلال، ونستبق إلى رؤية ما تنعم به من السحر الحلال، وما تمتاز به بين مدن العالم من تلك الشرايين المائية الكثيرة التي تتخلل أحياءها وعماراتها، وتقوم مقام الأنهج والشوارع والطرقات، وتلك الزوارق والقوارب والمراكب السابحة فيها، تجوس خلال الديار مثل السيارات والحافلات والشاحنات، كوسيلة للنقل والمواصلات، تحمل الركاب والسياح إلى مختلف الأماكن والجهات، وبعضها يحمل المواد والبضائع والأدوات كالشاحنات.

يشق المدينة القنال الرئيسي الكبير فيقسمها شطرين عظيمين أو مدينتين كبيرتين تخترقهما كثير من الفروع والقنوات المائية، علمنا من بعد أنها تبلغ (160) قناة تعلوها مئات الجسور والقناطر، تربط ما بين ضفافها، فتبدو المدينة وكأنها غارقة في الماء أو تسبح في البحر. أو هي تقع على صخور أو جزر عديدة قريبة من الساحل مما يجعل أحياءها أشبه شيء بأرخبيل يتكون من عشرات الجزر مختلفة الأشكال والأحجام، ولعل بعض فروع نهر البو

(PO) الواقع جنوبيها يمر داخلها ويتفرع إلى قنوات، وهذا ما لا أتحققه فقد يكون مجرد وهم مني.

تجولنا مليا على أقدامنا، وشاهدنا قصورا بيزنطية، وكنائس قوطية وآثارا من عهد الدوقات والحاكمين، ومباني وعمارات عهد النهضة، مما يدل على ما كان لها من ثراء وماض عريقين، وعز وسيادة باذخين.

ركبنا (القندول) : المركب المائي الذي تشتهر به البندقية ويتهافت عليه السياح من كل قطر وجنس فذكرني بأغنية (الملاح التائه) -كما يصف نفسه- الشاعر المصري الموهوب علي محمود طه (أغنية الجندول) التي خلد فيها (عروس البحر فينيسيا) ورسم لها أجمل صورة فنية، زادها تلحين وغناء الموسيقار محمد عبد الوهاب حياة وروعة وخلودا، فرحت أترنم بما أذكر من مقاطعها، وشاركني بعض الرفاق :

أين من عَيْنَـيَّ هـاتيك المجـالي ... يا (عروس البحر) يـا حلم الخيال
أين عشاقـك سمـار الليالي ... أين من (واديك) يا مهد الجمـال
مـوكب الغـيد و(عيد الكرنفـال) ... وسرى (الجندول) في عرض (القنال)
رقص (الجندول) كالنجم الوضيِّ ... فَاشْدُ يا (مـلاح) بـالصوت الشجيَّ
وترنم بالنـشـيد الوثنـيَّ ... هـذي الليلة حلـم الـعبقـريَّ
شاعت الفرحة فيـها والمسـرة ... وجلا الحب على العشـاق سـره
يَمْنَةً مـل بي على الماء ويَـسْرَه ... إنْ (للـجندول) تحت اللـيل سـره

ولكننا لم نشهد (عيد الكرنفال) ولا مواكب الغيد الحسان فيه، ولم نلق ذلك الوجه الذي سباه وفتنه فراح يصفه ويناجيه بقوله :

ذَهَبِيُّ الشَّعر شرقيُّ السماتِ مَرِحُ الأعطاف حُلْوُ اللفتـــاتِ
كلما قلتُ له خذ قال هـــاتِ يا حبيب الروح يا أنس الحياةِ

إنما وجدنا يوما عاديا كسائر الأيام العادية، ووجوها ككل الوجوه، فلا (كرنفال) ولا مواكب الغيد، وحتى لو صادفنا ذلك العيد ومواكب الغيد، ووجدنا مثل ذلك الوجه الشرقي المرح الأعطاف، فإننا سنكتفي بالنظرة العابرة، وربما التحية، فليس لنا من الوقت ما يكفي للتغزل والتلهي، ولسنا ممن (ضَيَّعَ في الأوهام عُمْرَهْ) ولسنا (ملاحين تائهين) نلهث وراء هذا اللون من اللهو والمجون.

ويخاطب الشاعر نفسه أو صاحب الجندول فيقول :

أيها الملاح قف بين (الجسور) فتنة الدنيا وأحلام الدهـــــور
صفَّقَ الموجُ لولدانٍ وحُـــورْ يغرقون الليـــل في ينبوع نور

ثم رحتُ أتغنى وأردد المقطع الأخير من الأغنية الجميلة وأتساءل عن تلك المجالي؟ وسمار الليالي؟ وعيد الكرنفال؟

أين يا (فينيسيا) تلك المجالي؟ أين عشاقك سمار الليالي؟ أين من عيني يا مهد الجـــمال؟ موكب الغيـــد وعيـــد الكرنفال؟ يا عـــروس البحر يا حلم الخيال؟ أين أين؟ ياليل؟!

هذه صورة أدبية ولوحة فنية لهذه المدينة السياحية الجميلة (عروس البحر) ويسميها الإيطاليون (ملكة البحار)، لما كان لها من عز شامخ ومجد باذخ، وصولات وجولات في الماضي مع كبريات الدول. فليست مجرد مدينة

سياحية أو مدينة من كبريات مدن إيطاليا التجارية والصناعية والسياحية كما هي اليوم.

نبـــذة تاريخيـــة عـــن البندقية

فقد سيطرت في الماضي على التجارة في البحر الأدرياتيكي، وزاحمت الدول العظمي في البحر الأبيض المتوسط، واستولت على ثغور في تركيا واليونان مدة ثم استردت منها، وحاربت العثمانيين وانتصرت عليهم في مضيق الدردنيل الخاص بهم، مما أجبر السلطان على عقد صلح معها سنة 1416م، واستولت على جزر : قبرص سنة 1571 وكريت سنة 1669 والمورة سنة 1715.

وبلغت ذروتها في عصر النهضة الأوربية، إذ كانت جمهورية مستقلة في القرون الوسطى يحكمها الدوقات الأريستوقراطيون، وحاربت حاكم (ميلانو) وانتصرت عليه، كما حاربت حكومة (جنوة)، وتغلبت عليها، وتحاربت مع بعض الجيران الآخرين الطامعين فيها، وأصيبت بخسارة فادحة قبل ذلك في غزوات البرابرة المتهمجين في القرن العاشر. والذي قضى على البندقية والبنادقة القضاء المبرم هو الإمبراطور نابليون بونابرت الذي اكتسح أوروبا كلها. وفقدت البندقية سيطرتها على البحر المتوسط بعد سقوط الجزر التي كانت تحتلها وتتمركز فيها، واستولت النمسا عليها سنة 1797، ثم تخلصت منها بعد نصف قرن، وانضمت إلى إيطاليا سنة 1866.

وهكذا كانت الحال في عهد الجمهوريات الصغيرة وملوك الطوائف وحكام العشائر، بين مد وجزر في العالم كله، والدنيا دواليك يوم لك ويوم عليك.

تريـاســتا الحــرة

لما حان الوقت المحدد للسفر عدنا إلى المحطة وركبنا القطار، واتجه بنا صوب الشمال في اتجاه قطر آخر هو (النمسا)، تاركين ساحل الأدرياتيك على اليمين، مخترقين السهول والوهاد، مجتازين بعض الأنهار التي لا أعرف أسماءها، ثم لاحت لنا جبال وغابات بعد برهة من الزمان على اليسار.

ثم هذه (تريستا الحرة) على يميننا نمر بها مرور الكرام من بعيد. رأينا اللافتات في الطريق تشير إليها، فذكرتني بمكانة هذا الثغر المتنازع عليه بين كل من النمسا وإيطاليا ويوغسلافيا في التاريخ. فما هي (تريستا) هذه؟ هي ثغر هام كبير في أقصى شمال الأدرياتيك، ومنطقة استراتيجية ذات أهمية، تعاقبت عليها الليالي والأيام، من مسرات وأسقام، فقد كانت مدينة حرة في القرن (13)، ثم خضعت للنمســا محتفظة بحكمها الذاتي حتى القرن (18)، حــيث صــارت (ثغرا حرا) في سنة 1719.

وكانت ميناء مزدهرا لأوروبا الوسطى، والمنفذ البحري الوحيد للنمسا إلى البحر، محتفظة بلغتها وثقافتها الإيطالية، ثم ضمتها (معاهدة فرساي) إلى إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم بعد هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، قرر الحلفاء الأربعة المنتصرون تدويل المنطقة والميناء وبعد مناقشات

بين إيطاليا ويوغسلافيا ضم الميناء والمدينة إلى إيطاليا، والمنطقة الزراعية الجنوبية إلى يوغسلافيا، مع اعتبار الميناء منطقة حرة لتجارة يوغسلافيا وحماية الأقليات في القسمين وتبادل الهجرة بينهما. و(ترياستا) الآن دويلة حرة تحميها الأمم المتحدة لفائدة الجميع، أقيمت هذه الدولة الحرة سنة 1974، بمقتضى ملاحق لمعاهدة الصلح مع إيطاليا، كتسوية للمطالب المتعارضة بين إيطاليا ويوغسلافيا. أما منطقة ترياستا الزراعية فتركت ليوغسلافيا وهي شبه جزيرة في الجنوب الشرقي للميناء.

جـــبال الألـــــب الشرقـــية

تركنا (ترياستا) على اليمين وواصلنا الطريق نحو الشمال حتى انتهينا إلى مدينة ترويس (Tarwis) آخر نقطة من الأراضي الإيطالية على مقربة من الحدود اليوغسلافية، في جبال الألب الشرقية التي تُكَوِّن مع جبال الألب الغربية الحد الطبيعي الفاصل بين إيطاليا وجيرانها : (النمسا وسويسرا وفرنسا) في شكل قوس عظيم عال يتوج الشمال الإيطالي ويفصله عن أروبا، في سلاسل من الجبال المتواصلة.

قطارنا الآن يدب في الأراضي النمساوية على سكته الحديدية، وسط جبال وعرة وأراضي صعبة لا عهد لنا بها، ولا نعرف عنها شيئا، نجهل لغة أهلها وكتابتهم، ولا دليل معنا من ذويها نستر شده ونستهديه على العكس من اللغة الإيطالية وكتابتها التي لا تبعد كثيرا عن اللغة الفرنسية وكتابتها.

وكل همنا رصد المناظر الطبيعية المختلفة في آخر النهار قبل أن يدهمنا الليل، وتصيد ما توحي به تلك المناظر من إلهام، أو من حقائق وأوهام،

أو ما تذكرنا به من حوادث جسام، يعرفها الخاص والعام، مما تجود به الذاكرة الكليلة، وتنفحنا به الحافظة البخيلة، مما ترسب فيهما من بقايا الحوادث والأحداث، التي يشيب لهولها الأحداث، ويرتاح لها الفحول من الكهول، لذلك تراني أتمتع بتلك المناظر تارة، وتارة أخرى أسبح مع الذاكرة والخيال، في متاهات الماضي والحاضر والمستقبل من كل ما يخطر على البال.

هاهو ذا القطار يتلوى في طريقه بين الغابات والأدغال، يخترق الجبال في أنفاق طويلة وقصيرة، ويقطع الأنهار والوديان عبر الجسور والقناطر، أو يسير حذوها في أخاديد طويلة وعميقة، ونحن نرى الجبال الشم الشوامخ فيهولنا علوها ونستعظم أمرها، لأننا نراها من قرب ومن تحت، ولو كنا نراها من بعد ومن فوق على متن طائرة أو منطاد لكان نظرنا إليها يختلف، حيث يرى القطار من الأعالي أشبه ما يكون بيرقة صغيرة أو دودة (أم الأربعة والأربعين) بالنسبة لعظمة هذه الجبال. فالرؤية من فوق ترينا قمم الجبال العالية نقطا تافهة منحطة مستوية مع الأرض، بينما هي -وأنت تنظر إليها من تحت- عظيمة عاتية، يرتد طرفك إليك حسيرا من فرط علوها، فسبحان العالم بكل شيء، وما أوتينا من العلم إلا قليلا.

هذه جبال الألب الشرقية المعقدة التركيب ما تزال قممها مجللة ببياض الثلج في عز الصيف، فكيف تكون في الشتاء يا ترى؟ نرى شلالات المياه نازلة من أعالي الجبال ولعلها من ذوب تلك الثلوج، ونرى البحيرات والغدران تجمعت مياهها في أحواض ووهدات من الأرض انحبست فيها لا تجد منفذا

تفلت منه، وفي المنحدرات والسهول الضيقة نرى الرعاة وقطعان مواشيهم المختلفة في تلك المراعي الخصبة الخضراء.

وشاهدنا بعض القرى والمدن ومساكن الفلاحين منبثة هنا وهناك في تلك الجبال المغطاة بالغابات الكثيفة التي تتضاءل أمامها غاباتنا التلية والساحلية، أما الزراعة فجد محدودة بهذه المناطق، اللهم إلا رقعا ضيقة من مزارع الكروم في ضفاف الأنهار الواسعة المشمسة، فشتان بين هذه المزارع ومزارع سهولنا الشاسعة الواسعة المتنوعة، فنحن في الزراعة أحسن حالا والحمد لله. وفي إحدى المحطات النمساوية وزعت علينا وجبة عشاء خفيفة ونحن بأماكننا لنأكلها في القطار.

أسدل الليل ستاره وغطى العالم بردائه الأسود، فلم نعد نرى شيئا خارج القطار، أما في الداخل فقد أشعلت الأنوار في المعابر ومقصورات العربات، وبعض الرفاق في مقصورتنا يدندن، والبعض واجم أو نائم، بعد ما كانوا يثرثرون طول النهار، ونسمع أصوات الترنزستور من المقصورات المجاورة، وأصوات الغناء والرقص في بعضها، والبعض لا يفتر من حركات الذهاب والإياب والوقوف في المعابر ممن لا يصبرون على طول الجلوس، وهكذا تختلف تصرفات الناس وسلوكاتهم كما تتباين أذواقهم ومشاعرهم، ويظهر ذلك جليا في السفر الطويل.

أما أنا فشديد التأثر برؤية المناظر الطبيعية إلى حد محاكاتها –إن صح التعبير– فإذا تجهمت السماء مثلا تجهمت أساريري، وإذا أشرقت الشمس أشرقت ملامحي. وكلما رأيت منظرا منها ارتسمت له صورة في ذهني، وتأثر لها مزاجي

وقد يظهر ذلك على سحنة وجهي، فالمضائق في الجبال توحي لي بالضيق والدكنة في الجو تشعرني بالانقباض، والصحو في السماء يجلو لي مرآة ذهني وهكذا.

ومع ذلك فأنا أحب تنوع المشاهد وتجدد الرؤى بالرغم مما تحدثه في نفسي من تأثرات متباينة، وأكره استمرار المنظر الواحد الرتيب وأمله ولو كان جميلا مريحا، حتى الصوت الجميل الرتيب إذا طال واستطال، كما في بعض الأغاني الشرقية التي يحلو لبعض المغنين ترديد كلمة أو كلمتين فيها عشرات المرات في الأغنية الواحدة وتستمر الأغنية ساعة وأكثر من ساعة، وقد لا تتعدى كلماتها العادية أصابع اليد، ومع الترداد الكثير افتعال الآهات والتأوهات التي قد لا تتلاءم مع معاني الكلمات، شيء ممل والله.

وعلى كل فأنا أفضل في السفر ركوب القطار والسيارة على غيرهما من وسائل النقل كالطائرة والباخرة لتلك المشاعر والأحاسيس المتباينة التي تنتابني عند رؤية المشاهد المختلفة التي لا تتوفر في الطائرات والبواخر، كما يراها الإنسان من قرب في السيارات والقطارات.

وإذا انصرفت عن رؤية تلك المناظر أحيانا لطولها أو تكرارها أو لظلام الليل مثلا، شدتني أصوات المركوب وحركاته المتنوعة هي الأخرى، وخاصة القطار الذي تختلف أصواته وحركاته باختلاف الطرق التي يمر عليها، فصوته وسرعته في الصعداء، غير صوته وسرعته في الحدراء، وصوته وحركته في الطريق المستوي غيرهما في الطريق الملتوي.

وهكذا أتحسس تلك الأصوات والحركات أحيانا وأتمتع أحيانا بها وأتذوقها خاصة بالليل، وأنساب معها كما يحدث ني عندما أستمع إلى أنغام موسيقية عذبة،

أو غناء شجي، أو أرى حركات رقص رشيقة. وقد يهدهدني القطار أو السيارة بحركاتهما الرتيبة، فأغفو وأنام كما ينام الطفل في مهده أو في حضن أمه، ولو لم يكن الوقت وقت نوم.

الستـــــار الــحديدي

ذكرتني هذه الجبال الشماء باسم (الستار الحديدي) ذلك الوصف الذي أطلق على الحد الفاصل بين الشيوعيين والرأسماليين في أروبا، الذين كانوا متحالفين في الحرب العالمية ضد الفاشستية الإيطالية والنازية الألمانية، وبعد التغلب عليهما انقسم الحلفاء المنتصرون إلى معسكرين كبيرين متنافسين، عرف أحدهما بمعسكر الديمقراطية أو العالم الحر بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والآخر بالمعسكر الاشتراكي الشيوعي، بزعامة الاتحاد السوفيتي الروسي.

وأصبح لكل من المعسكرين حلف عسكري ضخم يحميه من خصومه فيما يدعون، فللديمقراطيين الرأسماليين (حلف شمال الأطلسي)، وللاشتراكيين الشيوعيين (حلف وارسو). وهكذا انقسموا بعد الحرب إلى هذين المعسكرين المتخاصمين، كما يقع غالبا بين اللصوص عند اقتسام الغنائم، وما تزال البشرية تعاني من تعادي المعسكرين وتخاصمهما، وكأنَّ الحرب ضريبة حتمية على الشعوب. (فالستار الحديدي) اصطلاح سياسي أشاعته السياسة الغربية وروجته وسائل إعلامها وأذاعته أبواق دعايتها ضد روسيا ونظامها، واعتبرته الحد الفاصل بين أروبا الشرقية وأروبا الغربية. متهمة العالم الشيوعي بالانغلاق وعدم التفتح.

هانحن إذن اجتزنا (الستار الحديدي) كما يقولون، ودخلنا أوروبا الاشتراكية ذات النظام الاشتراكي الذي ناصبه الغرب الأوربي الرأسمالي العداوة والبغضاء، واعتبره خصما لدودا يجب القضاء عليه أو محاصرته على الأقل في حدود معينة لا يتعداها، ويصوره كالبعبع بأبشع الصور وأشنع النعوت، أو الوباء الذي يجب الاحتراز منه.

ولعل الشيوعيين كذلك، يفعلون نفس الشيء ضد النظم الغربية الرأسمالية، فهذا التهافت واتباع الهوى في كل من النظامين يجعل العاقل لا يعتد بدعاية ودعاوى كل منهما فيما يزعم لنفسه، أو فيما ينسب لخصمه.

وهدف الغربيين من إطلاق اسم (الستار الحديدي) على الحدود الفاصلة بينهم وبين الشيوعيين (وهي حسية ومعنوية) الإيحاء بأن نظم الحكم الشيوعي تتنافى ونظم الحكم الديمقراطي، التي تتميز –في زعمهم– بالحريات الشخصية (في التفكير والتعبير، وفي التنظيم والتسيير، وفي الاعتقاد والتحرك والعمل). ولكن المبتلين بالاستعمار مثلنا لا تغرهم الدعايات بشتى أساليبها ومن أي جهة جاءت فهم لا يرون فرقا بين الشيوعيين والرأسماليين، لأن كلا من هؤلاء وأولئك يضرب حصارا على الشعوب والدول الخاضعة لهم، أو التي تدور في فلكهم.

الـــنمسا وعاصمتها فيـــــينا

قطعنا طيلة الليل سلاسل جبال الألب الشرقية ذات التعاريج والالتواءات الكثيرة التي نحس بها من خلال حركات وأصوات سير القطار. وفي الصباح الباكر أشرفنا على منطقة فيينا، بعد أن اجتزنا ممر سمرينغ

(Semmering) وهو الطريق الطبيعي الوحيد الذي يصل ما بين فيينا وإيطاليا، في هذه الجهة الشرقية لجبال الألب، وبدأنا ننزل نحو حوض نهر الدانوب وفيينا.

توقفنا قليلا في محطة القطار بفيينا، حتى تتم إجراءات السفر، وتضاف إلى القطار بعض العربات بقدر الذين سيشاركون في المهرجان، واستقبِلنا استقبالا وديا، وقدمت لنا المشروبات والمرطبات وسط أهازيج الفرح والسرور الشيء الذي لم نره في الطريق الذي مررنا به لا في إيطاليا ولا في فرنسا، فهذا أحد الفروق بين تلك الشعوب الغربية الديمقراطية، وهذا الشعب الاشتراكي الأبي فما هي (النمسا) ؟ وما هي عاصمتها؟

النمـــــسا L'Autriche

(النمسا) اليوم جمهورية فيدرالية صغيرة، يبلغ عدد سكانها سبعة ملايين ونيفا، لغتها الألمانية، واسمها القومي : (أوستررايش) يتكون عَلَمها من ثلاثة أشرطة أفقية : أحمر وأبيض وأخضر، وعُمْلتها الشلن النمساوي.

قامت هذه الجمهورية الصغيرة على أنقاض الإمبراطورية النمساوية المَجَرِيَّة (أوتريش)، التي كانت قبل الحرب العالمية الأولى (1914-1919) قوة ضاربة في أوربا ثم انهارت بعد الحرب المذكورة وتقاسم جيرانها أطرافها، فانكمشت وتقلصت مساحتها وانحصرت في الولايات الجبلية حول العاصمة، وفقدت منفذها البحري الوحيد على بحر الأدرياتيك (ترياستا) الذي كان يربطها بالعالم الخارجي، فانعزلت وتقوقعت معتمدة على نفسها.

وهي اليوم دولة صغيرة عديمة السواحل، تقوم في قلب أوروبا الوسطى، يشقها نهر (الدانوب) بسواعده وروافده ليعوضها شيئا مما فقدته من المنفذ البحري، فيربطها بدول (البلقان) من الجهة الشرقية ومنها إلى (البحر الأسود)، وبألمانيا من الجهة الغربية، حيث يتصل بنهر (الراين) ثم ببحر الشمال.

و**الدانوب** ثاني نهر في أوروبا من حيث الأهمية، ينبع من الغابة السوداء بألمانيا، ويصب في البحر الأسود في مسافة تقدر ب(1800) كيلومتر، مارا بعواصم : فيينا وبودابست وبلغراد، وغيرها من كبريات المدن في أوروبا الوسطى ويصله بنهر (الراين) قنال هام يربُطهُ بالشبكة النهرية (للراين) التي توصله إلى (بحر الشمال) (فالمانش) ثم (المحيط الأطلسي). **فالدانوب** أهم وأعظم طريق مائي في أروبا للصادرات والواردات الدولية، وهو أعظم أجزاء النمسا رغم أنَّ إقليمه فيها جبلي في معظمه.

وكان من تاريخ النمسا الحديث أن أغارت عليها (ألمانيا النازية) فضمتها إليها سنة 1938. وبعد سبع سنين من الاحتلال الألماني لها، احتلتها قوات الحلفاء سنة 1945، وقسموها إلى أربع مناطق نفوذ دولية تحت إشراف كل من : (روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا)، كما وقع لألمانيا تماما، ودام ذلك إلى سنة 1955، وبعد هذه السنوات العشر من الاحتلال أو الاختلال استعادت النمسا سيادتها بجلاء آخر جندي أجنبي عنها، ولكنها لم تستعد كل أراضيها التي كانت لها في العهد الإمبراطوري، وهي اليوم غير مرتبطة بأي حلف عسكري، فهي مستقلة استقلالا تاما، ومحايدة تماما مثل سويسرا

والسويد نظرًا لأهميتها في مجرى الدانوب الشريان الحيوي لقلب أوروبا، ولكونها همزة وصل مهمة بين مورافيا ومسالك الألب الشرقية.

يتكون برلمانها من مجلس فيدرالي واحد يضم (165) عضوًا يمثلون عدة أحراب، وقبلت في هيئة الأمم المتحدة سنة 1955، وانضمت إلى مجلس أوروبا عام 1956، ورغم أن النمسا معدودة من العالم الاشتراكي الشرقي جغرافيا، فهي تعتبر من العالم الديمقراطي فكريا وإيديولوجيا لأنها ذات نظام ديمقراطي له برلمان وعدة أحزاب. وهي بلد مُصنَّع له صادرات هامة للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وألمانيا بقسميها، وغير ذلك من الدول الشرقية والغربية، وتستورد ما تحتاج إليه من أي بلد تشاء.

يقال : إنَّ (النمسا) أقل البلدان الأوروبية بطالة وتضخما واضطرابا، لكونها تتمتع بشبكة صلبة من الخدمات الاجتماعية، وإنها قضت على الفقر والبطالة والتضخم والاضطراب الذي تشكو منه معظم دول العالم. فهل حققت الاشتراكية فيها المساواة الاجتماعية التي لم تتحقق في غيرها من الدول ؟ وهل حققت الديمقراطية فيها الحرية والمؤاخاة التي تتمناها كل الشعوب؟ يبدو ذلك كذلك في مجتمعها الموحد المنظم المطمئن. وكل شعب يحلم بهذه المعجزة الاقتصادية النمساوية التي جاءت بعد الإقطاعية الطاغية في عهد الإمبراطورية، فالأهالي اليوم في النمسا ينعمون بسعادة غامرة تراها في وجوههم وفي عيونهم، لم تتوفر من قبل لأسلافهم في العهد الإمبراطوري، إذ لم يكن سعيدا حين ذاك سوى الأُسَر الحاكمة وحواشيها والمقربين إليها، شأن السادة في كل وقت من الملوك والأمراء والنبلاء والحكام الظلام، على حساب الرعية وشقاء الشعوب.

لعل السر في ذلك أن النمسا أخذت بأحسن ما في الاشتراكية من نظم وأعمال اجتماعية إنسانية، وعملت بخير ما في الديمقراطية من أسس دستورية وحريات شخصية في التفكير والتدبير والتسيير، ولم تلتزم بالحزب الواحد كما في الاشتراكية الشرقية المتطرفة، ولا بفوضى الديمقراطية الغربية المنحرفة، وصدق من قال (حب التناهي شطط، خير الأمور الوسط).

فيينا Vienne

العاصمة (فيينا) على الرغم من ضياع إمبراطوريتها ما تزال تحافظ على حيويتها وعظمتها كعاصمة لإمبراطورية كبيرة كانت. لأن حيادها التام وموقعها الهام على نهر الدانوب الذي تشرف على حركة الملاحة فيه، ولكونها عند ملتقى أهم الطرق في أروبا الوسطى، نشط حركتها التجارية، فازدهر اقتصادها، وترقت صناعتها، وكثر عمالها فتضاعف عمرانها، وتكاثر سكانها، وتراصوا وتكدسوا فيها حتى بلغوا ثلث سكان الجمهورية، لأن الموارد الريفية في الأراضي النمساوية الجبلية محدودة بعد فصل سهل المَجَر الخصب الثري عنها. و(فيينا) تقع شرقي النمسا على الضفة اليمنى للدانوب، حيث يغادرها لينساب من بعد في سهل المجر الواسع الغني.

كانت فيينا مركز إشعاع ثقافي وفكري في أوروبا على مدى قرون وتعتبر مركز الموسيقى الأوروبية الراقية، ومهد أشهر المغنين والملحنين فيها. ففي (فيينا) أشهر دار الأوبيرا في العالم، وفيها أهم المتاحف والآثار التاريخية والحضارية، وأجمل الدور وأجل القصور، التي حُوِّلَ بعضها أو معظمها إلى متاحف لمختلف الفنون، وهي الآن قبلة السياح والزوار لاحتوائها على أعز الآثار وأندرها.

بلغت العاصمة (فيينا) أوج عزها ومجدها وأبهتها كمركز للعلوم والفنون، وخاصة الطب والعلاج النفسي في القرنين 18 و19، واستقطب أشهر الموسيقيين من بنيها وغير بنيها، أمثال : استراوس وموزار وهايدن وبتهوفن.

ومبانيها اليوم وطرقها وشوارعها وحدائقها وفنادقها ودور اللهو فيها عنوان مجد عتيد، وعز طارف وتليد، والأمر البارز فيها هو انتشار المسارح بكافة أنواعها، بخلاف دور السينما التي لا يقبل الناس عليها إقبالهم على دور التمثيل، ولعل الذي يجذبهم للمسرح هو الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل الذي يقوم به أشخاص أحياء يعرفونهم بسيماهم، يتحركون أمامهم ويتجاوبون معهم، وتقوم بينهم ألفة روحية وعلائق ودية. أما الشاشة فهي تمثل عندهم خيال الظل الذي كان شائعا في القديم رغم تقدم الفن السينمائي اليوم بأفلامه الزاهية الناطقة الملونة، وفيها الغناء والرقص والموسيقى والتمثيل، ولكن مناظرها عبارة عن أخيلة متحركة لا يربط أصحابها بالنظارة ما يربطهم ممثلو المسرح الأحياء المتجاوبون معهم. وما تزال شوارعها الواسعة، وساحاتها الشاسعة، تزدان بأبهى النصب والتماثيل الفنية الراقية، وكذا الكنائس والمحلات التجارية، والقصور الأثرية الغنية، رغم التخريب الذي أصاب النمسا وغيرها في الحربين العالميتين. ولكن القوم يغارون على تراثهم، فيحافظون عليه ويعتنون به صيانة ورعاية، كما يحافظون على أنفسهم.

اشتهر اسم (فيينا) بعدة أحداث سياسية ومؤتمرات ومعاهدات واتفاقيات دولية مثل (مؤتمر فيينا) الذي أنهى حروب نابليون، وأعاد تقسيم أروبا سنة 1815، و(بروتوكول فيينا) في العام نفسه، و(اتفاقية فيينا) التي نظمت

القانون الديبلوماسي سنة 1921، و(اتفاقية فيينا) أيضا التي نظمت القانون القنصلي سنة 1962، ومدينة (فيينا) هي مقر لجنة الطاقة الذرية للأمم المتحدة منذ سنة 1957، واتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية بين روسيا وأمريكا...الخ.

تشيكوسلوفاكيا Tchécoslovaquie

واصلنا السير من (فيينا) نحو الشمال في القطار الذي انضمت إليه فرق وجماعات من النمساويين، كما أضيفت إليه بعض العربات وكأنَّ القطار خاص بالمهرجان فقط. المناظر هي المناظر تقريبا : غابات كثيفة وتلال خضراء زاهية، ومراع ومزارع و... و... حتى دخلنا الأراضي التشيكية بعد اجتياز جبال الكرباط التي تقوم كحد طبيعي بين (النمسا) وجارتها **تشيكوسلوفاكيا** (أو تشيكو سلوفنسكو) بالتشيكية.

هذه الجمهورية الاشتراكية الشعبية التي تقع شمالي (النمسا) بين جمهوريتي : (المجر) في الشرق، و(ألمانيا) في الغرب، هي مثل النمسا عديمة السواحل كثيرة الجبال حيث تكتنفها جبال السوديت في الشمال وجبال الكرباط في الجنوب، غير أنها أوسع من النمسا رقعة بما يساوي النصف، وأكثر منها سكانا بما يقارب الضعف. فسكانها اليوم يعدون أكثر من (15) مليونا.

ولكنها ليست دولة قديمة عريقة كالنمسا، فهي دولة حديثة تكونت نتيجة لتطورات الحرب العظمى الأولى، وتفكك الإمبراطورية النمساوية المجَرِيَّة، باتحاد الشعبين اللذين تألف منهما اسمها : (التشيك والسلوفاك).

فقد أعلنت جمهورية في أعقاب الحرب المذكورة سنة 1918، وبعد عشرين سنة ضمتها (ألمانيا النازية) إليها عام 1938 كما فعلت مع (النمسا) ودام احتلالها لها إلى نهاية الحرب العالمية الثانية بانهيار الحكم الألماني النازي سنة 1945، حين تم للقوات السوفييتية الروسية دخول عاصمتها (براها) Praha : (براغ). فهي دولة أوروبية جديدة بحدودها وكيانها السياسي، أعلنت جمهورية يوم 1918/11/14 وكان إنشاؤها نهاية لصراع طويل قام به التشيكيون ضد حكامهم النمساويين، وشاركت في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا.

وبعد تحرير الروس لها من الاحتلال الألماني الهتليري، وقعوا معها معاهدة موسكو يوم 1945/7/20. والحكم فيها اليوم يقوم على أساس دستور 1960/7/11 كدولة موحدة كما قلنا من (التشيك والسلوفاك)، وجميع السلطات فيها مصدرها القوى العاملة التي تمثلها المجالس الشعبية.

وهي الآن عضو في هيئة الأمم المتحدة، وفي (حلف وارسو) ذلك الحلف العسكري للدول الاشتراكية الشيوعية، الذي قام كرد فعل على (حلف شمال الأطلسي) للدول الرأسمالية الغربية. يقوم اقتصادها أساسًا على الصناعات الثقيلة، وعلى الصناعات الهندسية والكيماوية، التي تعتمد على ثرواتها المعدنية الغنية، وتشمل الحديد والفحم والغاز الطبيعي والفضة والنحاس والرصاص الخ، وصناعتها متقدمة جدا.

اهتمامها الزائد بالتطوير الصناعي كان على حساب الزراعة التي تجمدت بصفة عامة، وتقوم زراعتها على تسعة آلاف مزرعة جماعية، وهي

غنية بالغابات والأراضي الزراعية، زيادة على ثروتها المعدنية الثرية المتنوعة من ألمنيوم وأورانيوم وكاولين وغرافيت، وما تقدم ذكره آنفا منها.

تعتبر تشيكوسلوفاكيا من أسعد الدول التي خلفت الإمبراطورية النمساوية وكانت جزءا منها خصوصا من الناحية الاقتصادية، لنشاط أهلها الجم وحسن تعليمهم وتدريبهم، فقد استفادوا من الدستور الديمقراطي المتحرر، وحنكة الساسة البارزين، الذين أعادوا توزيع المزارع الإقطاعية الكبرى التي يمتلكها أو يحتكرها الأمراء والنبلاء والكنيسة، فارتفع المستوى العام للفلاحين الذين كانوا كادحين لا يملكون شيئا.

ولحسن حظ تشيوكوسلوفاكيا أنها لم تعان كثيرا من ويلات الحرب كما عانى جيرانها الأقربون البولنديون والنمساويون والألمان مثلا، فكانت أقل ضررا منهم.

وكان سقوط براغ (العاصمة) يوم 12 ماي 1945 نهاية العمليات الحربية بها وبأوروبا، وجلت عنها القوات الروسية والأمريكية في نفس العام، وتم الاتفاق على طرد ثلاثة ملايين ألماني منها. وازداد الاتجاه بعد ذلك في السياسة الخارجية نحو روسيا، واستمرت إجراءات تأميم الصناعات، واستولى الشيوعيون على الحكم سنة 1948، وبدأوا بتعميم توزيع المزارع، وتأميم جميع فروع الحياة فحكمها اليوم شيوعي.

الاسم القومي لها : تشيكوسلوفاك سوسياليست ريبوبليك.
نظام الحكم فيها : جمهورية اشتراكية شعبية.
العَلَمْ مستطيلان أفقيا : أبيض وأحمر ومثلث أزرق بينهما.

العاصمة : براها Praha براغ.

اللغة : *التشيكية والسلافية.*

العُمْلة : *الكرونا التشيكية.*

لعل من أهم نقط الضعف في تكوين تشيكوسلوفاكيا، إلى جانب اختلاف عناصر سكانها (من ألمان ورومان وبولان ومَجَر وروس وأوكران)، أنها دولة بلا سواحل تشرف منها على العالم، وهذا يجعلها تحت رحمة الدول المجاورة لها في نشاطها التجاري، ولذلك كان لزامًا عليها التفاهم مع الجيران لتأمين مواصلاتها في نهر الدانوب من جهة واستخدام بعض أنهار ألمانيا وموانيها من جهة أخرى.

بـــــراغ Prague

نزلنا بعاصمة تشيكوسلوفاكيا براغ (أوبراها) كما ينطقون بها ويكتبونها (Praha) واستُقْبِلنا استقبالات ودية رسمية وشعبية كأحسن الضيوف. أمضينا فيها نصف النهار الثاني نتجول، فتعرفنا على المدينة القديمة وعلى أقسام من المدينة الحديثة، وبتنافيها فاسترحنا قليلا من وعثاء السفر، وكنا نقابل بالحفاوة والتكريم حيثما حللنا ومررنا.

وهي تقع في أقصى القسم الغربي من تشيكوسلوفاكيا (في بوهيميا) أهم إقليم صناعي في دولته وفي أوروبا، وعلى نهر الإلب (Elb) الذي يعطي بوهيميا طريقا مائيا عظيم القيمة، يؤدي إلى سهول ألمانيا الشمالية وثغر (همبرغ) فبحر الشمال فيعوضها بعض ما فاتها من حرمان التفتح على الخارج لصرف صادراتها وجلب وارداتها.

و(براغ) مدينة قديمة غنية بتاريخها رغم حدوث دولتها، فقد كانت وما تزال مركزا للثقافة والعلوم كما كانت من أجمل مدن أوروبا في القرن الرابع عشر، وكانت مسرحا لمعظم انتصارات (فريد ريك الثاني) حاكم بروسيا.

وأصبحت عاصمة عظمى بعد الحرب العالمية الأولى سنة 1918. ثم احتلتها القوات الألمانية فيما بين سنتي (38-45)، وتأثرت كثيرا في الحرب العالمية الثانية، ولكن معظم آثارها التاريخية سلم من التخريب لحسن الحظ، وتم تحريرها من الألمان على يد القوات الروسية في ماي سنة 1945. وبعد ثورة سكانها على الاحتلال الألماني، نشطت حياتها الفنية والأدبية والموسيقية منها بالخصوص بين الحربين العالميتين، وهي الآن تنتعش صناعيا واقتصاديا وثقافيا، وتعتبر مركزا هاما للمواصلات والثقافة في وسط أوروبا، تنتج الآلات الثقيلة والسيارات والبضائع المختلفة والمواد الغذائية.

العلاقة بين هذه العاصمة وعاصمتنا الجزائر

هناك أسبوع صداقة ومودة بين مدينتي (براغ والجزائر) ينظم سنويا فيما بين 12 و19 جوان، في إطار التَّوْأَمة بين العاصمتين، صارت هذه التظاهرة تقليدا قائما من سنة 1965 يلتقي فيه مسؤولوا الدولتين، ليتدارسوا الإنجازات والمشاريع في إحدى العاصمتين أو في أمهات مدنهما، وليتبادلوا المعلومات الصناعية والفلاحية والسياسية، تعبيرا عن التضامن والسلام.

بـــولـــونيـــا
Pologne

وبعد اجتياز (جبال السوديت) في شمالي تشيكوسلوفاكيا التي تعتبر الحد الطبيعي بينها وبين بولندة (بولونيا). وبعد فترة من السير الحثيث في الغابات والأدغال بين السفوح والجبال انفسح أمامنا الأفق، فلا جبال تحد الرؤية، ولا غابات تحجب عنا شيئا وكلما ابتعدنا عن جبال السوديت وتوغلنا في بولونيا زاد اتساع الأفق وصفاء الجو، وزالت كدرة السماء فالمنظر يختلف تماما عن ذي قبل، فنحن في اكبر سهل بأوروبا.

اتسع الأفق أمامنا من كل جهة، وامتد السهل الأخضر الفسيح بحقوله ومروجه التي لا نهاية لها. تتخلـــلها البحـــيرات والغدران والمزارع وبعـــض القري والمدن.

وأرخي العنان للقطار فصار ينهب الأرض نهبا ويطوي المسافات طيا، فذكرت في التو الأبعاد التي كان يقطعها الآباء والأجداد قديما على الإبل والخيل وعلى البغال والحمير في الصحاري القاحلة والأراضي الموحلة، قبل

أن يظهر القطار والسيارة والطيارة، وما كان يقاسيه الإنسان في تلك الأزمان، من أتعاب ومشاق في السفر الشاق، ومن ذلك حجاجنا إلى الأرضي المقدسة، في تلك العهود التعسة.

ثم لاح لي قول الشاعر المغربي ابن وَنَّان الشمَقْمقي :

مهلاً على رِسْلِكَ حادي الأَيْبُقِ ولا تُـكَلِّفها بمـا لـم تُـطِـقِ
فطـالمـا كـلفـتهـا وسقتـهـا سـوق فتى من حالهـا لـم يشفقِ
ولم تـزل ترمي بها يد الـنوى بكـل فـج وفـلاةٍ شَمَلَّـقِ

وقول الشاعر الآخر المشرقي (ابن الفارض) :

حاديَ الأظعان يطوي البيد طَيْ ممعنا عَرِّجْ علي كثبان طَيْ

كانت الأرض على اليمين وعلى الشمال خضراء زاهية، تنبث فيها قطعان المواشي، وبعض المزارعين، وكنت ولا أزال أحب الخضرة وأرتاح لها، فكلما رأيتها انشرح صدري وارتاح خاطري، فإذا رافق ذلك جو معتدل وسماء صافية وأُفُق واسع لا تحده جبال ولا تسده تلال تمت لي البهجة وغمرني السرور، وأحسست بالانتعاش الروحي والفكري، فأنا في أحضان الطبيعة سعيد كالطفل في حضن أمه، تماما كما قال (ناظم حكمت) الشاعر التركي لما زار بولونيا : (ها أناذا أبدأ رحلتي بسهول بولندا كصبي تغمره الفرحة والدهشة، كصبي تطالع عيناه أول كتاب مصور، ويكتشف من جديد البشر والحيوانات والأشياء والأشجار، وقد بدت أكثر جمالا واكتست بألوان أكثر إشراقا[1].

(1) راجع (أغنيات المنفى) لناظم حكمت ترجمة محمد بخاري طبع سنة 1981 ص 101..

هكذا كانت نوافذ القطار على طول المسافة التي قطعناها شاشات سينمائية أو تليفزيونية تعرض علينا مشاهد ورؤى طبيعية، يعز الوصول إليها إلا في مثل هذه الرحلات الطويلة.

فكم اخترقنا من جبال وتلال ووهاد، وكم اجتزنا من أنهار وترع ووديان، وياما شاهدنا من بحيرات وغابات وشلالات، وكم رأينا من أصناف الشجر والزهر والثمر، وأجناس الطير والحيوان والبشر.

لا يفوتني هنا أن أذكر أننا بمجرد دخولنا الأراضي البولونية أخبرنا بأن المصلحة الصحية للمهرجان تقدم لنا جميع أنواع العلاج والإسعافات الطبية في القطار وفي مراكز الاستقبال بفرصوفيا.

نظرة عامة تاريخية وجغرافية لها

(بولندة) تتكون من سهل واسع رتيب بين دول قوية، بينها ما بينها من الخصومات والنزاعات، مثل : (النمسا) و(بروسيا) في وقت، و(ألمانيا) و(روسيا) في وقت، ولعل موقعها هذا هو الذي سبب لها الاعتداءات والتمزقات التي تعرضت لها في تاريخها، فهو من أهم الحقائق التاريخية والجغرافية التي شكلت تاريخ بولندة في الماضي، وستظل متحكمة فيه في المستقبل، تحفظ توازنه أو تثير مشاكله.

فمنذ بضعة قرون كانت (بولندة) إحدى القوى السياسية الكبرى في أوروبا. ففي أواخر القرن (17) الميلادي مثلا. كانت تمتد رقعتها من (بحر البلطيق) في الشمال إلى البحر الأسود في الجنوب الشرقي، ومن (نهر الأودر

Oder) في الغرب حتى (نهر دنيبر Dniepr) في الشرق الجنوبي، غير أن الخصومات الداخلية من جهة، ونمو الدول المحيطة بها من جهة أخرى، أدى إلى (تقسيمات بولندة الثلاث) المشهورة، فاقتسمت أراضيها : روسيا والنمسا وبروسيا، ولم يعد لبولندة وجود سياسي يذكر، ثم استطاعت أن تظهر من جديد بعد الحرب العظمي الأولى دولة مستقلة قوية سنة 1918 بعد سقوط الدول الثلاث المحتلة لها.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فكانت بالنسبة لبولونيا كالإعصار المدمر، فهدمتها تهديما فظيعا، وفتكت بشعبها فتكا ذريعا، حتى قيل أن خسائرها المادية بلغت ما يعادل إنتاج الأمة بكاملها مدة ست سنوات من العمل الدائب المثمر، لذلك انطلقت في عهدها الجديد لا من الصفر -كما يقولون- ولكن مما دون الصفر، وقضى ستة ملايين بولوني نحبهم قتلا على يد المحتلين، كما قتل الألوف من الأجانب المقيمين في بولونيا[1].

و(بولونيا) اليوم رغم ما منيت به من خسائر جسيمة في الحرب العالمية المذكورة، ومن وطأة الاحتلال الأجنبي لها، سرعان ما نهضت من كبوتها، وانتشلت أثمن مخلفات الماضي من أنقاضها وخرائبها، كما سنرى أمثلة من ذلك في فصل (فرصوفيا المحطة)[2].

---

(1) وانظر التعريف الكامل لبولونيا في الفصل الخاص بها في آخر الكتاب.

(2) انظر ما يتعلق بفرصوفيا في القسمين الثاني والثالث من هذه السوائح

أرض بولندة في معظمها سهول فسيحة منبسطة لا يزيد ارتفاع أربعة أخماس مساحتها على مئتي متر فوق سطح البحر، وقد أدى انخفاض أراضيها وقلة تضاريسها إلى أن أصبح التصريف المائي للسهل الكبير عسيرًا بها.

لذلك احتوت أرضها على ما يقرب من أربعة آلاف بحيرة ومساحات واسعة من الغدران والمستنقعات والمروج. يشق نهر الستول (La Vistule) طريقه في السهول منعرجا بين المستنقعات والبحيرات مصرفا مياه أغلبها، إلى أن يصب في بحر البلطيق، وتصل كمية المياه في فيضانه إلى نحو عشرين مثلا من مياهه في فصل الشتاء، حيث تتجمد مياهه قرابة شهرين في السنة.

و(الفستول) يجتاز بولندة من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وهو أعظم وأهم طريق مائي فيها ومن أصلح الأنهار للملاحة في السهل الأوروبي الكبير.

تعتبر مدينة (دانتزيغ Dantzig) الواقعة قريبا من مصبه على ساحل البلطيق أهم منفذ بحري لبولندة، وقد وضعت يدها عليه في القرن الخامس عشر الميلادي، ولكن (بروسيا) انتزعته منها سنة 1793.

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى، جعلت مدينة (دانتزيغ) وما يحيط بها (نحو خمسين كيلومترا مربعا) منطقة حرة، مثل كثير من المناطق الاستراتيجية البحرية في العالم التي تتنازعها الدول.

ولقد بنت (بولندة) لنفسها ميناء خالصا لها هو ميناء (جدينيا Gdynia) تحول إليها حوالي ربع تجارة (دانتزيغ Dantzig).

فرصوفيا عاصمة بولندة Varsovie

هذه (وارسو) أو وارشاوا Warsava كما يدعوها البولونيون ويسميها الفرنسيون (فرصوفيا)، وهي غايتنا من هذه الرحلة الطويلة، انتهينا إليها والحمد لله يوم الأحد آخر جويلية بعد سفر طويل مُضْنٍ وممتع في نفس الوقت، دام أياما وليالي في البر والبحر.

نزلنا من القطار في محطة بقلب المدينة، وبعد إجراءات جمركية خفيفة. قابلنا المسؤولون عن استقبال ضيوف المهرجان، ورحبوا بنا أجمل ترحيب، وقاموا بفرز الفرق والهيئات المختلفة الوافدة، وسؤال كل شخص عن هويته وما يمثل في المهرجان، وعينوا لكل مجموعة صغيرة دليلا مرافقا يحسن لغتها يتكفل بها كلما احتاجت إليه في أيام المهرجان، ثم وزعونا على حافلات أو صلت كل مجموعة إلى مقر إقامتها. وكان مقر وفدنا مع مجموعات أخرى في ثانوية ذات نظام داخلي بضاحية من ضواحي المدينة هادئة وادعة نظيفة، هذا عنوانها :

Ulica siennieka 15 (Paraga) Szkota W 26

اسم دليلنا Tadet وهو شاب لطيف ظريف في حوالي الثلاثين من عمره من سكان فرصوفيا يحسن الفرنسية التي تعلمها بفرنسا لما هاجر إليها أيام الاحتلال الألماني لبلاده.

عَرَّفنا الدليل أن المواصلات التي تربط هذه الناحية بقلب المدينة هي عربات، الترمواي ذات الأرقام التالية : 8، 23، 24 أو حافلات الباص التي تحمل رقم 102، ووزع على كل واحد منها شعار المهرجان، وبطاقات الأكل والشرب في المحلات الخاصة والعامة، فيما إذا تخلفنا عن الوجبات الرسمية التي تتناولها في النظام الداخلي للثانوية، وبطاقات للركوب والحلاقة، ودخول القاعات والمحلات العامة كالسينما والمسرح والمتحف ونحوها، واشترينا رزنامة المهرجان المطبوعة بالفرنسية في شكل كتيب ظريف هو عبارة عن مفكرة جيب، أو دليل كاف واف للتعريف بفرصوفيا، وبرنامج مهرجانها مشفوعا بالخرائط والصور والرسوم الموضحة لكل ما يحتاج إليه ضيف المهرجان وهو مطبوع بجميع اللغات الحية كذلك.

كانت المدينة مزدانة بأبهى الزينات احتفاء بالوفود القادمة من أطراف الدنيا للمشاركة في مهرجان الشباب والطلاب العالمي، والموسيقي تصدح في كل مكان بواسطة ناقلات ومكبرات الصوت المنصوبة في الشوارع والساحات، تردد الأناشيد والأغاني بشتى اللهجات، وتذيع البلاغات والتوجيهات بعدة لغات بما فيها العربية، واللوحات الجدارية الكبيرة تمثل بهجة الحياة المثلى في ظلال التآخي العالمي والصداقة بين الشعوب المختلفة، تمثل أشخاصا من كل جنس في تصاف وتوادد تعلوهم حمامات السلام وأغصان الزيتون رمز الهناء والسلم.

ولوحات أخرى تمثل بشاعة الحرب والبغي والعدوان، وخراب الحضارة والعمران، فيها جنود مدججون بالسلاح، وألات الدمار كالمدافع والدبابات وهي

ترمي بشررها وقذائفها المدمرة، والطائرات وهي تلقي بقنابلها المحرقة المخربة، وتحتها المباني والعمارات المهدمة، وألسنة اللهب والدخان متصاعدة.

ومع مظاهر البهجة والفرح والزينة التي تكسو العاصمة بمناسبة المهرجان –رغم مناظر الحرب المؤذية ومظاهرها المأساوية التي ما تزال ماثلة للعيان– فالناس مسرورون منشرحون، وحركة البناء والتعمير قائمة على قدم وساق لا تتوقف.

وأول ما يصدم الزائر في فرصوفا (وارسو) الأتربة والغبار المنتشر بكل مكان بسبب حركة البناء الدائبة المستمرة في الليل والنهار، ففي كل شارع وساحة تقريبا، والشبابيك والسياجات في أرصفة الشوارع بقلب المدينة وعلى جانبي الطرق تحمى المارة مما قد يسقط عليهم، وأحيانا أخرى حواجز وعلامات منع، تشير إلى أن هذا الطريق مسدود وذاك مقطوع أو منحرف، هذا في الضواحي وأرباض العاصمة بالخصوص.

وتسمع أزيز آلات الحفر ومحركاتها، وأصوات نواعير المعاول الآلية والجرافات ونحوها، والعمال منكبون على أعمالهم كالآلات الصماء لا يشغلهم شاغل مما يدور حولهم، وركام مواد البناء وأنقاض المباني المهدمة هنا وهناك، والشاحنات ذاهبة آتية في كثير من النواحي تنقل المواد والأنقاض ماعدا قلب المدينة الذي يمثل (فرصوفيا الحديثة) عاصمة المستقبل. فالمدينة أكبر ورشة عمل أشاهدها لحد الآن في حياتي.في كل انحناءة وعطفة في معظم الأحياء : أعمال البناء والرافعات شامخة إلى عنان السماء.

وأول مايلفت نظر الزائر إلى فرصوفيا مناظر الدمار وخراب الحضارة والعمران وغبار الأتربة المنتشرة في كل مكان من جراء الحرب، وحركة البناء الدائبة المستمرة لـيـل نهار، لإعادة الإعمار..

فرصـــوفيا في الماضي القريب

تلك صورة مصغرة للعاصمة اليوم كما شاهدناها، أما عن حالتها قبل عشر سنوات فقط من زيارتنا لها، فكانت فرصوفيا مدينة ميتة خالية من كل ما يشعر بالحياة فيها، لا يرى بها غير الحرائق والخرائب في تلال وربى على مد البصر، لا يوجد بها إنسان ولا حيوان.

فعندما عبرت الجيوش السوفياتية نهر الفتسول (La Vistule) إلى جانب الجيش البولوني الشعبي الأول يوم 1945/1/17 ودخلوا (فرصوفيا) لم يجدوا بها شخصا واحدا، إنما وجدوا أنقاض وخرائب مدينة مهدمة، مهجورة، قُدِّر ركامُ أنقاضها بثمانية وعشرين مليون متر مكعب، ووجدوا الدخان والرماد والسواد الكالح بكل مكان. خربت مبانيها. وتلفت مغانيها.

فقد دمر الألمان العاصمة قبل أن يتركوها، لمَّا يئسوا من البقاء فيها، فأحرقوا شوارعها الواحد قبل الآخر، وهدموا الدور والقصور، ونسفوا القناطر والعمارات والكنائس، ودمروا الأنصاب والتماثيل وكل شيء قائم فيها.

وكانت خلاصة تلك الأعمال تخريب 85% بالمائة من المباني و90% بالمائة من المؤسسات الصناعية، ومجموع الطرق والسكك الحديدية للقطار والترومواي، وقنوات المياه، والترع وأنابيب الري، كما نسفوا بالديناميت جميع القناطر والجسور التي تربط جوانب (وَرْشَاوَة) على نهر الفستول، ومعامل الغاز والكهرباء إلخ...ليقطعوا الطريق في زعمهم على عدوهم.

ومن بين هذه الخرائب مالا يقدر بثمن من كنوز الهندسة المعمارية للمتاحف والقصور وللمسارح والكنائس الحديثة منها والأثرية، التي تبارى في إتقانها مهرة الصناع والمهندسين في كل العصور. فلا غرو أن ييأس الكثير من المسؤولين الذين رأوا هذا الدمار الكلي الفضيع، والخراب الشامل الشنيع، وأن ينصحوا بتحويل العاصمة إلى (كركوفيا) أو إلى (لودز) أو غيرهما من المدن الكبيرة ذات القيمة والأهمية، ولكن الحكومة المؤقتة لبولونيا قررت في الفاتح من فيفري سنة 1945، تحويل مقرها إلى فرصوفيا (وارسو)، وإعادة بعث العاصمة من لاشيء، وتجديد بنائها في مكانها بسرعة وباندفاع وحمية عجيبين.

وقدمت الحكومة السوفياتية عونها الكبير الذي لا ينكر ولا يقدر بثمن، فبنى جنودها القنطرة الرئيسية أوّلاً، وأقاموا جسرًا من الخشب لربط فرصوفيا ببراغا Praga، وأعادت القطارات للمدينة، ومعمل الكهرباء وكل الأدوات اللازمة لتحريكه، نقلت كل ذلك بالطائرات في سرعة مدهشة.

وبعد أيام من التحرير سارعت الحكومة المؤقتة بتموين الشعب وإرسال قاطرات معبأة بالمواد الغذائية من قمح ودقيق وغيرهما، ومئات المنازل الفنلندية الجاهزة لعمال البناء، وكان اللاجئون البولنديون يعودون إلى مواطنهم زرافات ووحدنا، فينزلونهم في مخيمات ومعسكرات حتى تتهيأ لهم المساكن.

ثم بعد ست سنوات من البناء والتشييد في العاصمة، وإزالة أطنان الأنقاض تم بناء نحو (400) أربعمائة عمارة مدرسية وأكاديمية، وثمانية عشر مستشفى، وثمانية وثلاثين مكتبة، وتسعة متاحف وأحد عشر مسرحا، وأعيد مجموع خطوط المواصلات والطرق وقنوات الماء والغاز والكهرباء، وتم وضع أربع قناطر

كبرى على النهر للمشاة والسيارات والسكك الحديدية بوارسو، ليربطوا بين شطري المدينة.

واعتبرت سنة 1949، عطفة تاريخية لإعادة بناء (فرصوفيا)، ففي هذه السنة تمت المرحلة الأولى لبناء المدينة. وسنة 1950فتحت عهدا جديدا لتحويل بناء عاصمة حديثة وجميلة لبولونيا، واستطاع الفرصوفيون أن يشاهدوا لأول مرة (نهج العالم الجديد)(Nowy swit) باندهاش وتعجب، هذا الشريان العظيم لقلب العاصمة الذي أنشئ بكل جماله وجلاله، وكذلك (الحي المركزي)، والساحات والنصب الذكارية أنشئت في مواضعها الأولى كما كانت.

وتماثيل (نيكولا كوبرنيك) و(آدم متسكيفتش)، وغيرهما من الشخصيات التي لا ينفك اتصالها مرتبطا بتاريخ عاصمة بولندة، رممت كلها وأعيدت إلى أماكنها القديمة بعناية وأمانة فائقين، وكذلك بعض الأماكن التي كان لها دور عظيم في تاريخ وارسو (أو وَرْشَاوَة كما يدعونها). وأعيد بناء المسرح الكبير للأوبرا والبالي بنفقات باهضة، يعد الآن من أضخم وأوسع مسارح أوروبا وأفضلها تجهيزا وأناقة، كذلك ولحديقة (واجيينكي) شهرة في أوروبا بما فيها: القصر الملكي المدهش المبني على الجزيرة، وغير بعيد من العاصمة توجد الدار التي ولد فيها الموسيقار الكبير (فريد ريك شوبان).

وهكذا قامت العاصمة من خرائب وأنقاض الحرب الهتليرية المدمرة، بأحياء حديثة ومبان للاستعمال الشعبي، وغير ذلك من مرافق الحياة اللازمة لعاصمة جديدة، مع المحافظة على معالمها وآثارها كما كانت. فالمدينة في الحقيقة لا تملك ميلادا واحدا ككل المدن بل ميلادين اثنين: ميلاد نشوئها وميلاد تجديدها.

والمدينة التي كانت ميتة أصبح سكانها اليوم بعد عشر سنوات من عودة الحياة إليها يبلغون مليون نسمة، وصارت قلب (بولونيا) النابض بالحركة والحياة، ومركزها الإداري والاقتصادي والثقافي الهام.

وليس هذا هو الذي يهم الفرصوفيين، ولكن الذي يهمهم أكثر هو إعادة طابع ومناخ المدينة السابقة وجوها السحري، وقبل كل شيء المدينة القديمة بأنهجها وأحيائها الرئيسية، حيث كانوا يمضون أمتع أوقات فراغهم، تلك الأماكن التي تذكر بأجمل الذكريات وأجل وأروع مآثر الآباء والأجداد، وتفكر بمرابع الصبا ومراتع الشباب، حيث كانت تعقد أبهج حفلات الأفراح والزيجات والاحتفالات.

وقد أقيمت الكنائس في نفس الأماكن التي كانت بها، وبنيت بنفس الأشكال التي كانت عليها في القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، وأقيمت الأحياء الجديدة في قلب العاصمة على أنقاض القديمة وبنفس المواد حتى نفدت، كما أقيمت الساحات والحدائق والشوارع الرئيسية كذلك، ولكن بتماثيل ونصب ذات طابع شيوعي في الغالب الأكثر. فرموز الأمة البولونية اليوم تظهر في النصب

أمام النزل الذي أقاموا فيه 15 يوم في مؤتمر(مهرجان) الشباب والطلبة بفرصوفيا سنة 1955 وأمام الحافلة التي ستنقلهم إلى المحطة يوم قفولهم راجعين إلى بلادهم، التذكارية والتماثيل الكبيرة التي تنتشر في الأحياء والساحات العمومية، تخليدا للأبطال والعظماء، من رجال العلم والدين والسياسة والفن في مختلف العهود التي مرت على بولونيا، يظهر ذلك في العاصمة وفي غيرها من المدن والقرى.

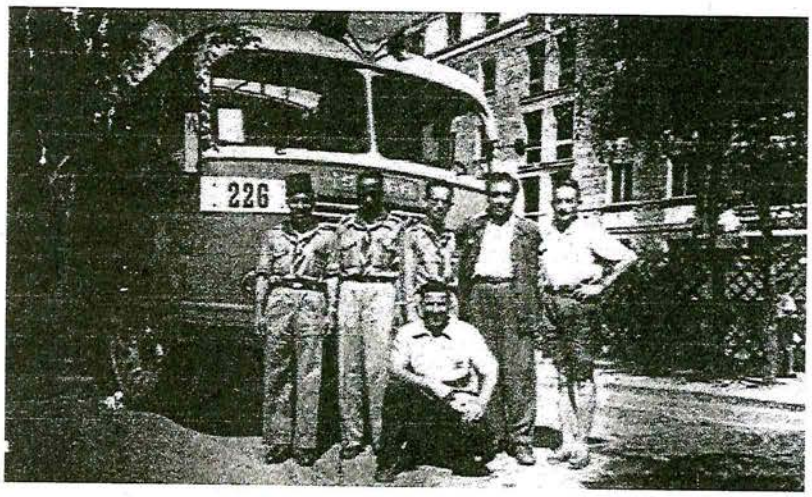

– من اليمين إلى اليسار: الخضر الدومي – عبد الرحمان الجيلالي – محمد الصالح رمضان – الحفناوي هالي – عبد الرحمان رمضان – محمد الطاهر حمادة – (الجالس أمامهم)

الـــعودة مـــن فرصوفيـــا

انتهى مهرجان الشباب والطلاب الذي دام أسبوعين كاملين في نشاط دائب ونظام بديع (من 1955/07/31)، فبعد ظهر يوم الأحد 14 أوت تناولنا غداءنا كالعادة، ووزّعت علينا طرود ظريفة من الزاد المُنَوَّع نَتَبَلَّغُ به في الطريق الطويل المضني، ونستعين به أثناء السفر[1].

قصدنا المحطة وركبنا القطار الذاهب إلى تشيكوسلوفاكيا، ودعنا عاصمة المهرجان التي تركت فينا أجمل الذكريات التي لا تنسى، ونحن نحمل لها ولشعبها أجل مشاعر المودة والصداقة، لما حبانا به البولونيون من حب وعطف ورعاية، وما متعونا به من حدب وإمتاع ومؤانسة.

سار بنا القطار في نفس الطريق الذي كنا سلكناه في المجيء، القطار الذي يربط ما بين فرصوفيا وبراغ، وما بين براغ وفيينا، وعليه فلا داعي لإعادة ذكر تلك المشاهد التي كنا عرفناها سابقا، سواء في بولونيـــا أو في

---

(1) انظر فيما يخص المهرجان القسم الثاني من الكتاب.

تشيكوسلوفاكيا والنمسا، وفي عاصمة هذه بتنا واسترحنا من وعثاء السفر، ولا داعي كذلك للتعريف بدولها وعواصمها فقد تقدم كل ذلك فيما سبق.

ومن (فيينا) أخذنا القطار المتجه غربا إلى (سويسرا) في الصباح الباكر، حيث عبرنا النمسا من أقصى شرقها إلى أقصى غربها، في أراضي جبلية في الغالب. عبر هضاب وتلال أو بين سلاسل من جبال الألب الغربية الشامخة التي يكسو الثلج قممها في عز الصيف، وفي أغلب فصول السنة يعم الثلج السهول والجبال والوهاد، وتعود الأرض كلها بيضاء ناصعة البياض في الشتاء بالخصوص.

شاهدنا في طريقنا مراعي خضراء زاهية عليها كثير من قطعان الماشية، وأحراشاً وغابات وقليلا من المزارع والفلاحين، وبعض البيوت الخشبية للاصطياف (Les chalets). ومن حين إلى حين نعبر نهرًا أو نخترق جبَلاً عبر أنفاق تطول أو تقصر إلى غير ذلك من المشاهد والرؤى المختلفة العادية في مثل هذه المناطق الجبلية.

سـويسـرا

دخلنا سويسرا، وعبرناها من شمالها الشرقي إلى جنوبها الغربي. نفس المناظر تقريبا التي رأيناها في النمسا. زائد بحيرات أكثر، وكتل جليدية تبهر، ومراكز للراحة والاستجمام، ومحطات للرياضة الصيفية والشتوية. التي تمتاز بها سويسرا وتشتهر، يُقبل عليها السواح من أطراف العالم يربط بينها في تلك القمم الشماء عربات (التليفريك) المعلقة بحبالها الكهربائية، تغدو وتروح في الهواء تحت تلك الحبال، كما تجري عربات القطار في الأرض فوق قضبان

السكك الحديدية، ولكن هذه ضخمة متصلة ببعضها ومتقاطرة، وتلك عرباتها صـــغيرة منفردة ومـــتباعدة عن بعضها.

مررنا بمدن وقرى أهمها في النمسا مدن : سالنسبورغ وأنسبروك، وفي سويسرا : زوريخ، برن، لوزان، وأخيرا جنيف، ولم تتوقف سوى في هذه حيث أمضينا حوالي ثلاث ساعات استرجعنا فيها راحتنا. ورحنا نتطلع إلى ساحاتها الجميلة وحدائقها الرائعة وشوارعها الواسعة النظيفة ومتاجرها الأنيقة، بعد إجراءات الجمارك التي كانت خفيفة.

من المدن التي لفتت أنظارنا أكثر في شمالي سويسرا بمبانيها القديمة والحديثة و-نحن نمر بها في القطار مرور الكرام- : زوريخ الواقعة في الطرف الشمالي للبحيرة التي تحمل اسمها (بحيرة زوريخ)، وهي أكبر المدن السويسرية وعاصمة المنطقة الشمالية التي تتكلم الألمانية.

سويسرا : اسمها القومي شفايتس (بالألمانية) وسويس (بالفرنسية) وسويسرا (بالإيطالية). وتلك هي لغاتها الرسمية الثلاث.

عاصمتها : (برن)، ***عَلَمَها*** : أحمر عليه صليب أبيض، **عُمْلَتها** الفرنك السويسري، نظامها : جمهوري فيدرالي.

والحكم الفيدرالي : عبارة عن نظام سياسي يقوم على اتحاد مركزي بين دولتين أو أكثر، أو بين دويلات أو ولايات، لا تكون الشخصية الدولية فيه إلا للحكومة المركزية، مع احتفاظ كل وحدة من الوحدات المكونة للاتحاد ببعض الاستقلال الداخلي، ويكون على رأس هذا الاتحاد رئيس واحد للدولة، يمثلها في المحيط الدولي.

والنظام الفيدرالي يختلف عن النظام الكونفيدرالي (أي التعاهدي) الذي يعتبر اتحاده ضعيف الروابط، وقد يتحول تحت ضغط الأحداث إلى اتحاد فيدرالي، كما وقع لسويسرا نفسها التي عاشت عهودا طويلة في اتحاد كونفدرالي نظرًا لاختلاف عناصر شعبها، ثم تحولت في القرن التاسع عشر إلى اتحاد فيدرالي مركزي، ولذلك سلمت من ويلات الحروب ومصائبها من ذلك الوقت.

اقترن اسم (سويسرا) بالحياد التام الدائم في النزاعات الدولية منذ سنة 1815، فلم تشترك في حرب من الحروب الأوروبية والعالمية، وهي دولة صغيرة تجاور أربعا من الدول التي كان ولا يزال لها خطرها ونفوذها في أروبا بالخصوص وفي العالم، هي، النمسا من الشرق، وفرنسا من الغرب، وألمانيا في الشمال، وإيطاليا في الجنوب. وتمتزج لغات وثقافات هذه الدول بالكيان السويسري، فنشأت عن ذلك قطاعات ثقافية في سويسرا، أكبرها القطاع الألماني المجاور للنمسا ولألمانيا شمالا وشرقا، ثم القطاع الفرنسي في الجنوب الغربي، فالقطاع الإيطالي في الجنوب وهو أقلها.

تشتهر سويسرا بإنتاج صناعي دقيق، كما تشتهر بالسياحة وبالرياضات الشتوية والصيفية، وبإنتاج الألبان ومشتقاتها، وعلى السياحة وذلك الإنتاج يرتكز معظم اقتصادها. أما أرضها فتحتل الجبال المتوجة بالثلوج والبحيرات نحو ربع مساحة سويسرا، لذلك اقتصر إنتاجها الزراعي على بعض الحبوب والبطاطس والخضر والفاكهة ومنتجات الألبان التي تقدر قيمتها بنحو ثلاثة أرباع الإنتاج الزراعي كله فيها، ومنها ينبع نهرا : الراين والرون.

ورغم أن موارد سويسرا الطبيعية قليلة جدا لجدب تربتها، فقد بلغت شَأْوًا بعيدا من الرخاء بفضل مهارة أبنائها الفنية، فبقدر ما تكون الأرض جدباء وأهلها فقراء فإنهم يعتمدون على أنفسهم ويشحذون عقولهم ويحركون سواعدهم للخلق والإيداع فيستغنون، والحاجة أم الاختراع.

جنيـــف

مدينة جميلة نظيفة، لا ينقصها سوى جمال أخلاق أهلها وحسن استقبالهم لزوارهم، أو لبعض زوارهم على الأقل، ولطف معاملتهم معهم، وهي تقع على الطرف الغربي للبحيرة الرائعة المسماة باسمها (بحيرة جنيف) وهي قريبة من الحدود الفرنسية. يشق المدينة نهر الرون فيقسمها جزئين : يقع الجزء القديم منها على الضفة اليمنى والحديث على اليسرى.

وقد ضمتها فرنسا إليها فترة من الزمان في مستهل الثورة الفرنسية سنة 1798، ويطلق اسم (جنيف) على المقاطعة التي تعتبر جنيف قاعدتها وعاصمتها، ويشتهر هذا القطاع باستعمال سكانه اللغة والثقافة الفرنسية، ومن مشاهير علمائها : جان جاك روسو، وجاكونيكر، واستقر بها الأديب الفرنسي الفيلسوف فولتير مدة من الزمن.

تعتبر مدينة جنيف ثالثة المدن السويسرية من حيث عدد السكان، وهي مركز صناعي تجاري وسياحي هام، تشتهر بصنع الساعات على اختلافها، والأجهزة البصرية، والآلات الدقيقة بأنواعها كأنَّ أهلها مـــن الـــجنس الصـــيني أو الياباني.

ورغم أن موارد سويسرا الطبيعية قليلة جدا لجدب تربتها، فقد بلغت شَأْوًا بعيدا من الرخاء بفضل مهارة أبنائها الفنية، فبقدر ما تكون الأرض جدباء وأهلها فقراء فإنهم يعتمدون على أنفسهم ويشحذون عقولهم ويحركون سواعدهم للخلق والإيداع فيستغنون، والحاجة أم الاختراع.

جنيـــف

مدينة جميلة نظيفة، لا ينقصها سوى جمال أخلاق أهلها وحسن استقبالهم لزوارهم، أو لبعض زوارهم على الأقل، ولطف معاملتهم معهم، وهي تقع على الطرف الغربي للبحيرة الرائعة المسماة باسمها (بحيرة جنيف) وهي قريبة من الحدود الفرنسية. يشق المدينة نهر الرون فيقسمها جزئين : يقع الجزء القديم منها على الضفة اليمنى والحديث على اليسرى.

وقد ضمتها فرنسا إليها فترة من الزمان في مستهل الثورة الفرنسية سنة 1798، ويطلق اسم (جنيف) على المقاطعة التي تعتبر جنيف قاعدتها وعاصمتها، ويشتهر هذا القطاع باستعمال سكانه اللغة والثقافة الفرنسية، ومن مشاهير علمائها : جان جاك روسو، وجاكونيكر، واستقر بها الأديب الفرنسي الفيلسوف فولتير مدة من الزمن.

تعتبر مدينة جنيف ثالثة المدن السويسرية من حيث عدد السكان، وهي مركز صناعي تجاري وسياحي هام، تشتهر بصنع الساعات على اختلافها، والأجهزة البصرية، والآلات الدقيقة بأنواعها كأنَّ أهلها مـــن الـــجنس الصـــيني أو الياباني.

يرتبط اسم (جنيف) بكثير من المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي عقدت فيها، كما يرتبط اسمها بعدد من المنظمات والهيئات العالمية، التي جعلت من مدينة جنيف مقرا دائما لها، وأهمها : هيئة الصليب الأحمر الدولي التي قامت بها منذ سنة 1864، ومكتب العمل الدولي الذي أنشئ بها سنة 1919، وعصبة الأمم التي تكونت سنة 1920، وبنايتها اليوم تعرف ب(قصر الأمم) المقر الأوربي لهيئة الأمم المتحدة الموجود مركزها العام بنيويرك. وهيئة الصحة العالمية التي اتخذت مقرها فيها سنة 1948.

مـــرسيلـــيا

ومن (جنيف) عدنا إلى فرنسا عبر طريق (ليون مرساي)، وهو غير الطريق الذي انطلقنا منه في الذهاب منذ نحو ثلاثة أسابيع، فقد كان إذ ذاك طريق (مرساي نيس جنوة) وهذا الطريق الذي نسلكه الآن هو أهم طريق طبيعي بين سويسرا وفرنسا يمر ب(ليون) ميناء نهري ومدينة تجارية هامة.

يمثل حوضا : (الرون والساون) الممر الدهـــليزي الواقع بين جبـــال الجورا(Jura) و(الألب الفرنسية) وهو يختلف من جهة إلى أخرى، فهو في الشمال والجنوب واسع، وفي الوسط ضيق خانق. يبدو الطريق أحيانا مسدودا بين ليون ومرسيليا لوجود تلال (الماسيف سنترال) وجبال (الفوج Voge) من جهة، وبين تلال وجبال (الفوج والجورا) من جهة أخرى، ولكنه هام جدا تخترقه أهم الخطوط الحديدية الفرنسية (خط : باريس ليون مرسيليا)، وتتفرع منه خطوط أخرى تربط ما بين فرنسا وسويسرا وإيطاليا، فهو الشريان الحيوي الكبير لحركة النقل والمرور بفرنسا.

بذلك صارت (مرسيليا) أكبر موانى فرنسا وأعظم منفذ لتجارتها مع الخارج، وهي محطة هامة للتجارة الدولية.

بتنا في مرسيليا على أمل الرجوع إلى الوطن غدا إن شاء الله على متن طائرة (ارفرانس)، لم نستقبل فيها -كما لم نستقبل في المرة الأولى- ولم يهتم بنا أحد في سويسرا ولا في فرنسا، سوى فرع الحزب الشيوعي الفرنسي بمرسيليا الذي جمعنا في مقره لبضع دقائق ليستمع إلى أخبار المهرجان من شهود عيان، وليقوم بواجب الدعاية والإعلان لحزبه في صحيفته هناك مرفقة بصورتنا وبعض تصريحاتنا وكأننا جميعا شيوعيون!! أو خدمة الشيوعية، وعلى كل فالقوم نشطون يحسنون اغتنام الفرصة وتسخيرها لأغراضهم وخدمة حزبهم.

لم أُعَرِّفْ بفرنسا كما عملت مع الدول التي مررنا بها، لأنها معروفة لقرائنا أكثر من تلك الدول.

في مطار الجزائر العاصمة بعد الرجوع من مؤتمر الشباب والطلبة بفرصوفيا –1955–وقد حملتنا الطائرة(أيرفرانس –Air France).من مرسيليا إلى الجزائـــــــــر .

القسم الثاني

فرصوفيا مدينة المهرجان الخامس

مهرجـــانات الشباب والطلاب في العالم

فكرة مهرجان الشبيبة والطلبة ظهرت بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية في جو من الاتحاد والتضامن اللذين خلفهما النضال المشترك ضد النازية والفاشستية والروح الطاغية العسكرية.

انطلقت الفكرة من اجتماع عقد في لندن عام 1945 لممثلين عن (الاتحاد العالمي للطلبة) و(الاتحاد العالمي للشبيبة الديمقراطية) الذين دعوا شبيبة العالم إلى الإعداد والمشاركة في (مهرجان عالمي للشباب والطلاب) يعقـــد في السنة المقبـــلة (1946) تحت شعار(السلم والسعادة على الأرض).

جاء الوقت وعقد الاجتماع والتقى فيه مندوبون عن سبعين دولة أقسموا اليمين وعقدوا العزم على النضال من أجل السلم ووحدة الشبيبة، ومن أجل الأخوة والصداقة بين الشعوب.

عقد **المهرجان الأول** : في (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا في صيف عام1947، حضره سبعة عشر ألف نسمة، من واحد وسبعين دولة.

والمهرجان الثاني : في (بودابست) عاصمة المَجَر في صيف عام 1949، حضره ثلاثون ألف من اثنين وثمانين دولة.

والمهرجان الثالث : في (برلين) عاصمة ألمانيا الديمقراطية في صيف عام 1951، حضره ستة وعشرون ألف نسمة من مائة وأربع دول.

والمهرجان الرابع : في (بوخارست) عاصمة رومانيا في صيف عام 1953، حضره ثلاثون ألف نسمة من مائة وواحد وعشرين دولة.

والمهرجان الخامس هذا الذي نحضره في (وارسو) عاصمة بولندة ويحضره واحد وثلاثون ألف نسمة من مائة وأربعة عشر دولة، تحت شعار (السلام والصداقة بين الشعوب).

في فجر هذه الحركة المهرجانية لشبيبة العالم الديمقراطية، وابتداء من مهرجان (براغ) سنة 1947 حيث حضرت هذه الحركة وباركتها عقول بارزة وأفكار نيرة لشخصيات معروفة في العالم أمثال : برتران راسل، وجان بول سارتر، وجوليكوري، وبابلو نيرودا، وجورجي أمادو، زيادة عن اهتمام الكتاب والمؤلفين على اختلاف نزعاتهم، ووسائل الإعلام والصحفيين الذين أشادوا بتلك المهرجانات وأذاعوا أخبارها واصفين لها وشارحين أو ناقدين.

فهذه المهرجانات تتيح لفئات الشباب المختلفة الإعراب عن آرائها وتطلعاتها واهتماماتها بحرية وصراحة، سواء الشيوعيون والاشتراكيون والديمقراطيون، بيضًا وسودًا وصفرًا، رياضيين وفنانين، مثقفين وغير مثقفين، من يدينون بدين سماوي ومن لا يدينون بدين، يجب على الجميع مواصلة الطريق إلى المستقبل السعيد (مستقبل الأخوة والسلام والصداقة بين الشعوب).

فشباب وشابات كل شعب يجسدون ربيع البشرية الباسم، وهم آمال المستقبل السعيد للإنسانية كلها، مثل ماهم معقد طموح شعوبهم في بلادهم، لذلك ينبغي الاهتمام بهم في هذه اللقاءات المهرجانية العظمى التي تجمع ممثلين عن شباب القارات من شتى التقاليد والمعتقدات.

يجتمعون لتبادل أحسن ما في كل شعب من كنوز وتراث علمي وروحي وفني. ولعل هذا أفضل وأقصر طريق للتفاهم البشري، وتبادل الخبرات وعواطف المودة والصداقة، في لقاءات واجتماعات حافلة بالحوار الدافئ، أو في ندوات تعقد لتبادل الرأي الصريح المثمر، والنقاش الحاد أحيانا، ولم لا ؟... إذا كان الموضوع هاما وحساسا يفيد الجميع.

مثل إدانة الحروب وسباق التسلح، وطغيان الاستعمار والإمبريالية، وهضم حقوق العمال والمستضعفين، وشجب قنبلتي : (هيروشيما ونغازاكي)، وكل حرب من شأنها تدمير العالم والقضاء على البشرية، ولعدم تكرار تلك التجارب المأساوية، فإذا وقعت حرب أخرى عالمية بمثل تلك القنابل الذرية المدمرة للعمران والبشرية، فلن تكون بعدها حياة...وعلى الدنيا السلام.

لذلك يجب تضامن شعوب العالم وحكوماته في رفض القنابل الذرية المدمرة وأخطارها المرعبة والدعوة إلى نزع السلاح الذري وترك التجارب النووية، وشجب عدوان الأقوياء على الضعفاء، وتصفية الاستعمار والتنديد به وبالإمبريالية.

فمن السفه والظلم أن تبعثر المبالغ المالية الضخمة الخيالية على وسائل الهلاك والدمار، وكوكبنا الأرضي يعج بالفقراء والمرضى والأميين، وبالأغنياء، والأقوياء المترفين يعيشون ويعبثون!!

فهذا اللقاء العالمي للشبيبة والطلبة حدث عظيم هام، وعيد حقيقي لهم يجسد طموحاتهم ويبلور أفكارهم وينضج تفكيرهم. تتضمن شعاراته دائما وفي كل مهرجان كلمتا:(السلام والصداقة بين الشعوب). يجمع الشباب الواعي من مختلف العقائد والأجناس للنضال من أجل مصالحهم الحيوية. ومن أجل محاولة حل القضايا العالمية والوطنية التي تشغل بال الرأي العام العالمي حلا عادلا، ومحاربة الاستعمار والهيمنة على الشعوب، والقضاء على الاستبداد والعنصرية، والظلم والاضطهاد، وتقرير حرية الشعوب وتقرير مصيرها، والسلام والحوار هما الشرطان الأساسيان لحل القضايا الدولية، سواء اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.

ورغم أن فكرة هذه اللقاءات الشبابية الضخمة التي أصبحت أعلى منبر عالمي للشباب والطلاب نبعت وانطلقت من إحدى كبريات عواصم العالم الحر –كما يقولون– (لندن) فإن الحكومات الغربية لا تنظر إليها بعين الرضى، لما يتردد فيها من تنديد بالاستعمار والإمبريالية (بخلاف منظماتها الجماهيرية الشعبية)، ولذلك لم تستضفها تلك الحكومات ولا مرة واحدة، فالمهرجانات الشبابية العالمية تعقد لحد الآن في عواصم الدول الاشتراكية لا غير، وفيها دعوات حارة للتقارب والتحابب، وفيها نقد صريح للتخاصم والتحارب.

مهرجان الشباب والطلاب الخامس بفرصوفيا

نظرة عامة

مهرجان فرصوفيا :

مظاهرة الثقافة والفن والرياضة لجميع الشعوب، تجري في عشر قاعات كبرى و(32) مسرحا، و(20) تختا و(18) سينما بعضها في الهواء الطلق والبعض مسقوف ومكيف، وهناك تخوت ومنصات في الحدائق والساحات، وشاشات للسينما على الجدران في الشوارع وأربع سركات (Cirques) تقدم فيها الفرق العالمية عروضها وألعابها البهلوانية، وقد دشن قبيل المهرجان تسع معارض وثائقية عالمية وبولونية مخصصة للتاريخ والتكنولوجيا والفنون بأنواعها. وحفلات الرقص والغناء والطرب تقام كل ليلة في الحدائق على الساحات للعموم بالمجان.

أعلنت إدارة تحرير جريدة (شبيبة العالم) لسان حال (الاتحاد العالمي للشبيبة الديمقراطية) عن مسابقات عالمية على شرف (المهرجان الخامس بوارسو) تخص: الأدب والصحافة والموسيقى والفنون الشعبية والبلاستيكية

والأفلام والرسوم الفنية، وستعطي أوسمة ذهبية وفضية وبرونزية، ولقب (إكليل سباق المهرجان العالمي للشباب)، هذا للحائزين على جوائز السباق الثلاث الأولى، وتعطى شهادات وجوائز شرف لمن تحصلوا على الترتيب الرابع والخامس والسادس، وستعلن النتائج وتنشر أثناء المهرجان، وتحفظ أسماء الحائزين لإكليل السباق في هذه المسابقات.

وأفاد (مركز الصحافة الدولية بوارسو) أن عدد المندوبين الذين قدموا إلى المهرجان قدر بثلاثين ألف مندوب رسمي (30.000)، ومائة وأربعين ألف شاب وشابة من البولونيين (140.000) الرسميين. ومالا يحصى من بقية أفراد الشعب البولوني وغيرهم من السياح ومن الضيوف والمشاهدين الأحرار، وما يزيد عن ألفي صحفي قدموا من أطراف العالم. لتغطية أخبار المهرجان. والذين شاركوا في تظاهرة الاستقبال، وافتتاح المهرجان ثلاثة آلاف شخص من منظمات الشباب والطلاب العالمية بأعلامهم الزاهية وألبستهم المختلفة الأشكال والألوان.

فقد هيأت السلطات المحلية والمنظمات الجماهيرية والرسمية بإشراف ومساعدة اتحادي، الشبيبة والطلبة العالميين، وفروعهما المحلية والجهوية برامج كثيرة مضبوطة ومحكمة، وقامت الهيئات والفرق المختلفة بحفلات متنوعة للموسيقى والغناء والرقص وألعاب القوى، ومسابقات ومباريات لأنواع الرياضة في الملاعب المسقوفة وفي ملاعب الهواء الطلق، والألعاب البهلوانية في السركات (Les Cirques) وتنظيم لقاءات أدبية وثقافية، وسهرات ترفيهية وتنكيرية،

وجولات سياحية واستطلاعية، وزيارات لمعالم ومعامل المدينة و... و... أشياء كثيرة لا تعد ولا تحصى.

ووزع (شعار المهرجان) و(البطاقة الرسمية) على ضيوف المهرجان، وهما يجعلان المندوبين الوافدين مواطنين بولونيين ممتازين أو ضيوف شرف معتبرين، تسمحان لحاملهما بأولوية دخول الأماكن العامة كالمطاعم والمتاجر والقاعات والحدائق من غير التزام الصف الطويل وتمنحانه حق الركوب في الأتوبيسات وحافلات التروموای بلا مقابل.

وصف المهرجان

ما عساني أقول في هذا المهرجان الضخم الفخم الذي استمر أسبوعين كاملين أناء الليل وأطراف النهار في أرجاء العاصمة : قاعاتها وساحاتها وحدائقها التي حولت إلى منصات وتخوت ومسارح، وكل مكان واسع صالح فيها، ومكبرات الصوت تصدح في جميع الأنهج والشوارع والساحات تذيع وتنقل أخبار المهرجان دقيقة بدقيقة، أو تذيع الأغاني والأناشيد بجميع اللغات الصينية والهندية والعربية زيادة عن اللغات الأوروبية، وشاشات السينما بكل مكان في الشوارع والساحات.

فقد تمثل العالم أجمع من أقصى الصين واليابان، إلى أقصى أمريكا الشمالية والجنوبية ومن أقصى شمالي أوروبا إلى أستراليا ومجاهل إفريقيا في هذا المهرجان. ومثلت فيه العروض الفنية والرياضية. وجرت فيه المباريات والمسابقات العالمية من كل نوع ولون، وعقدت الندوات واللقاءات الثقافية وأعطيت الجوائز والشهادات، ووزعت الأوسمة والكؤوس والميداليات،

وعرضت في معارضها الفنون التشكيلية لرسامين ونحاتين بولونيين وغير بولونيين. وقصارى من يريد وصف المهرجان أن يكون كالنحلة أو كالفراشة في ربى ومروج شاسعة خضراء مزهرة، تتنقل من زهرة إلى أخرى، وحتى هذا لو تيسر لإنسان لما أمكنه أن يعطي صورة حقيقية للمهرجان، لأن عشرات الحفلات واللقاءات تقع في وقت واحد وفي أماكن متعددة ومتباعدة.

وإذا كان هناك حفل أو مهرجان ينطبق عليه القول المعروف : إنه يفوق الوصف أو يعجز عنه التعبير، فهو حتما هذا المهرجان العظيم، فليس من المبالغة إضفاء هذه المقولة عليه لأن المرء يبدو عاجزا عن الإحاطة بكل المشاهد والصور لضخامتها وتنوعها وتعددها، ولأن بصر الإنسان محدود لا يستطيع الإلمام بعدة مشاهد تجري في وقت واحد بأماكن كثيرة.

الافتتـــاح

بدأ الافتتاح يوم الأحد آخر جويلية 1955 بمسيرة كبرى ضمت أكثر من ثلاثين ألف مندوب رسمي يمثلون الوفود العالمية المشاركة، ومائة وأربعين ألفا من الشباب البولوني فتيانا وفتيات. كما سبقت الإشارة إلى هذا الإحصاء الرسمي.

انطلقت المسيرة من قلب العاصمة برايآتها وشعاراتها المختلفة في اتجاه الملعب المركزي (Station contralny) استمرت نحو الساعة وسط أهازيج الترحيب والهتاف من المشاهدين الذين اصطفوا ألوفا لا تحصى كبارا وصغارا على جانبي الطريق يُلَوِّحُون بأيديهم وبأعلام صغيرة حمراء وبيضاء وبالونات ملونة. فهذه المسيرة عبارة عن نهر بشري يتدفق في نظام وهدوء

تعلوه رايات الوفود المختلفة الألوان. وكأن دول العالم ومنظماته كلها جاءت لتشارك في هذه التظاهرة الشبابية الفريدة، على اختلاف عقائدها وجنسياتها ولغاتها، يجمعها هدف واحد هو (الأخوة والسلام) و(الصداقة بين الشعوب)، وهو شعار المهرجان، يَعْبُر هذا النهر البشري الشوارع الرئيسية للبلاد بين ضفتين من البشر المستقبلين للضيوف مثل (نهر الفستول) الذي يشق العاصمة (وارسو) من جنوبها إلى شمالها هادرًا في فيضانه الصيفي الطاغي.

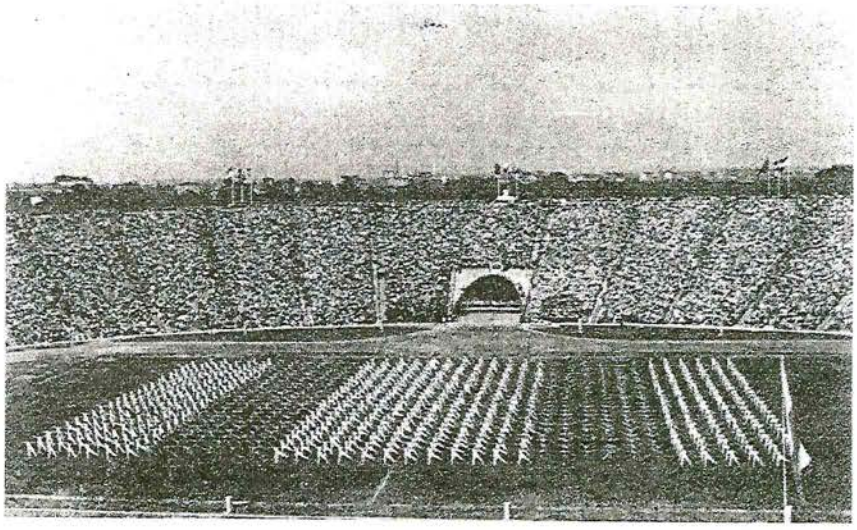

تظاهرات المهرجان العالمي الخامس للشباب والطلبة
المنظم بفرصوفيا سنة 1955

ما إن تلاحقت الوفود وفود المسيرة وأخذت أماكنها في أرضية الملعب الشاسعة حتى انطلقت أسراب الحمام (حمام السلم)

كرجل من الجراد تطير فوق الملعب حتى كادت تغطي السماء وتحجب الشمس لكثرتها، وانطلق بعدها نشيد (شبيبة العالم الديمقراطية) صادحا يتردد صداه بواسطة مكبرات الصوت في أرجاء الملعب وفي أحياء العاصمة، وبعد النشيد الوطني البولوني، وإلقاء الكلمات الرسمية الوجيزة من المشرفين، بدأ استعراض الوفود أمام منصة الشرف وسط هتافات الجماهير وهي تحيي كل وفد يمر أما المنصة، وعلى الخصوص وفود الشعوب المناضلة التي تطالب بحريتها واستقلالها وتقاوم الاستعمار وجبروته، وبشكل خاص الوفد الجزائري الذي حضي بتكريم واهتمام أكبر من الجماهير بسبب الثورة العارمة التي يقوم بها ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم والقُوَى المناصرة له، وعلى رأسها الحلف الأطلسي.

ثم عرضت المجموعات الفنية البولونية على أنغام الموسيقى مصحوبة برقصات وتشكيلات قامت بها فرق مختلفة بالألبسة تقليدية وفلكلورية، تمثل شتى المناطق أو مختلف الولايات البولونية، كل ذلك في الملعب المركزي الذي كانت مدرجاته العالية المحيطة بالأرضية الواسعة على شكل إهليلجي ملآن بمئات الألوف من المشاهدين يبدون كالنمل أو كالنحل.

وبعد هذا الافتتاح الرسمي انطلقت أعمال المهرجان تتوالى كل يوم وليلة في سائر أرجاء المدينة التي كانت تعج بأصناف البشر، وتضج بحركاتهم وأصواتهم وآلاتهم طيلة أسبوعين. ولكي يأخذ القارئ لهذه الرحلة

صورة إجمالية موجزة عن هذا الحدث العظيم والتظاهرة الشبابية النادرة، أعرض عليه أولا (البرنامج الإجمالي للمهرجان) كما نشر ملخصا في خطوطه العريضة ثم أتنقل به بعد ذلك في أرجاء العاصمة واصفًا ما أرى وأشاهد بقدر الاستطاعة.

البرنامج الإجمالي

اليوم الأول: الأحد 1955/7/31. الاحتفال بافتتاح المهرجان الخامس في الملعب المركزي.

- استعراض جميع المشاركين في المهرجان بالملعب المركزي
- عرض المجموعات الفنية البولونية به كذلك.

اليوم الثاني: 1955/8/1. افتتاح المسابقات الثقافية العالمية بالقاعة الوطنية للموسيقى.

- تدشين الملتقى الثاني للرياضة الأخوية للشبيبة بالملعب المركزي.

اليوم الثالث: 1955/8/2. معارض لمختلف المنظمات العالمية للشباب والطلاب بقصر الثقافة والعلوم.

- افتتاح مهرجان الأفلام بسينما موسكو.
- لقاء شبيبة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى وجمهورية الصين الشعبية، وفرنسا (أعضاء مجلس الأمن الخمسة).
- سهرة تذكارية لميكيافكس –معرض لهواة جمع الطوابع البريدية.

اليوم الرابع: 1955/8/3. العيد العالمي للحصاد

- افتتاح المعرض العالمي الفني (للألواح الفنية) بساحة ملاكوفسكي 3
- ختم المسابقات الثقافية التجريبية للمهرجان بالقاعة الوطنية للموسيقى.

اليوم الخامس: 1955/8/4. جوق عالمي بمناسبة الذكرى العاشرة للجامعة العالمية للشبيبة الديمقراطية بقصر الثقافة والعلوم.

اليوم السادس: 1955/8/5. غرس أشجار الصداقة في ممر الأخُوة من طرف مندوبي الوفود المشاركة.

- جماعة فرسان السرك العالمية –سهرة تذكارية لأندرسن.
- لقاء شبيبة البلدان الأوروبية – مراقص للطلاب

اليوم السابع: 1955/8/6. اجتماع للتآخي بين الشعوب. ولمنع أسلحة الدمار الجماعي بساحة النصر.

- لقاء كل المندوبين مع الوفد الياباني.
- حفل تنكري (كرنفال)

اليوم الثامن: 1955/8/7. لقاء مندوبي كل البلدان مع الشبيبة البولونية. تظاهرة الشبيبة البولونية إكراما ورعاية للسلم والأخوة والصداقة.

اليوم التاسع: 1955/8/8. تدشين مدرسة تحمل اسم (المهرجان الخامس للشبيبة والطلبة)

- حفلة للمجموعات الفنية للطلاب – ملتقى لشبيبة البلاد البلطيقية.

اليوم العاشر: 1955/8/9. مَلْقَى التضامن والتآخي مع شبيبة البلدان المبتلاة بالاستعمار.

-لقاء شبيبة بلاد أمريكا اللاتينية – سهرة تذكارية لشيلر.

اليوم الحادي عشر: 1955/8/10. ختام المسابقات الثقافية العالمية – عرض الألبسة الوطنية واستعراض الأزياء (الموضة).

- احتفال بعيد الفتيات –سهرة تذكارية للخادمات.

اليوم الثاني عشر: 1955/8/11. تظاهرة على شرف حركة المقاومة ضد الفاشستية، والذكرى العاشرة لتحرير محبوسي المعسكرات والمعتقلات النازية الهتليرية.

- لقاء مندوبي المهرجان مع الأطفال البولونيين في حديقة الأخوة والصداقة.
- لقاء شبيبة إفريقيا وآسيا. – سهرة تذكارية فيتنامية.

اليوم الثالث عشر: 1955/8/12. ختام النتائج الرياضية للفائزين في المهرجان –استعراضات رياضية وطنية –استعراضات قفز التزلج والتزحلق.

اليوم الرابع عشر: 1955/8/13. ختم ملتقى الرياضات الأخوية العالمية بالملعب المركزي.

- حفل تنكري كبير (كرنفال) بغابة بيلارسكي.

اليوم الخامس عشر: 1955/8/14. ختم الحفل التبجيلي للمهرجان الخامس.

هذا عدا اللقاءات الثنائية الهامشية بين مختلف الوفود من حين إلى حين.

أيـــــام ولـــقاءات لا تنســـى

أمضينا في فرصوفيا أسبوعين في لقاءات وتعرفات على شبيبة العالم من كل جنس ودين، زيادة عن حضور معظم حفلات ومباريات المهرجان، والاطلاع على معالم المدينة ومصانعها ومؤسساتها، والمشاركة في بعض التجمعات والموائد المستديرة، والندوات لمناقشة المسائل الهامة التي تشغل بال الكائن البشري، والتي تَضَمَّن أكثرها برنامج المهرجان المفصل، مثل قضايا السلم والحب ونزع السلاح، وكفاح الشعوب وتصفية الاستعمار، ومصير العالم، وطموحات الشعوب، وتطلعات الشباب واهتمام الطلاب...الخ.

حيث أعرب المندوبون والوفود عن تأييدهم لنضال الشعوب وحركات التحرر الوطني في اجتماعات التضامن التي عقدت في أماكن شتى من المدينة وقرروا شجب الحرب والتسلط والهيمنة على مقدرات العالم.

يمكن القول أن الشباب والطلاب أمكنهم معرفة الإمكانيات والوسائل اللازمة لتبادل وجهات النظر في القضايا المختلفة، وأمكنهم التعبير عن آرائهم بحرية وصراحة، والتزموا بمواصلة الكفاح والتضامن ضد الاستعمار

والاستغلال، وضد التعصب والعنصرية، وكل ما يعوق أو يعرقل الاخوة والصداقة بين الشعوب، ويدعم السلام والحرية وحق العيش في ظل الأخوة والسلام.

كانت أيام المهرجان رائعة حقا تعرفنا فيها على عالم جديد ما كنا نعرفه أو نحلم به. أجرينا فيها اتصالات فردية وجماعية مع عديد من الهيئات والمنظمات والأفراد، وكانت لنا فيها لقاءات هامة مع بعض الوفود الصديقة والشقيقة، تكلمنا فيها بحرية عن أوضاعنا، وما تلاقيه شعوبنا من اضطهاد، وما تقوم به من تضحيات.

كان من أهمها : اللقاء مع (الشبيبة الديمقراطية الفرنسية) التي شرحنا لها المشكل الاستعماري الطاغي في الجزائر بعد الحرب العالمية بالخصوص، وحوادث ماي 1945 التي راح ضحيتها خمسة وأربعون ألف نسمة في يومين. لأنهم احتفلوا بانتهاء الحرب العالمية، وطالبوا بالحرية والمساواة التي وعدوا بها، جزاء ما قدموا في الحرب من تضحيات، فكان جزاؤهم الإبادة الجماعية، والأحكام الزجرية، فكانت هذه الأعمال التعسفية من بين أهم الأسباب في إعلان ثورة التحرير الجزائرية المباركة التي نرجو لها النصر والضفر، فاعترفوا لنا بعدالة قضيتنا وبحقنا في الثورة على الظلم والطغيان وأن نعيش أحرارًا كجميع الشعوب.

ولقاءات أخوية ممتعة مع (الشباب البولوني) الذي تطفح على محياه دائما علامات الأخوة والمودة والسرور، بضيوف عيد استقلالهم العاشر، وعيد الشبيبة العالمية الخامس، ومع طوائف من الشباب الصيني المتطلع إلى معرفتنا وخصوصا المسلمين منهم الذين استقبلونا بحرارة فائقة وأحبونا حبا

جما لكوننا مسلمين مثلهم، ولأننا شعب صغير يحارب دولة كبرى تعتبر القوة الرابعة الضاربة، ومعها حلفاؤها الكبار في الحلف الأطلسي، فالصينيون المسلمون معجبون بنا وفخورون، وأدهشونا بعروضهم الفنية الرائعة المدهشة وألبستهم الزاهية المزركشة.

وكان من أروع تلك اللقاءات لقاؤنا بـ(الوفد الفيتنامي الشمالي) الذي دعا الوفد الجزائري إلى مقره، واحتفل بنا احتفالا أخويا حارا استقبلنا عند الدخول بأحد أناشيدنا الوطنية ألقاه بلحنه وألفاظه العربية أطفال فيتناميون لم يبلغوا الحلم فأحسنوا الأداء، كان مفاجأة مذهلة لنا. قال لنا أحد المشرفين على هذا الحفل مشيرًا إلى هذا النشيد :

هذا تذكار جميل ما نزال نحتفظ به أخذه بعض جنودنا في حربنا التحريرية من بعض المجندين الجزائريين في الجيش الاستعماري الفرنسي، الذين فروا من جيش العدو وأنضموا إلينا يحاربون معنا العدو المشترك، ويقاسموننا حياتنا الضنكة في ميادين الشرف، وهكذا ضمنا وإياكم خندق واحد، واختلطت دماؤنا ودماؤكم في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وكان منا ومنكم الشهيد والجريح والأسير والسجين في تلك الحرب، وسوف لا ننسى لكم هذا الجميل الجليل الذي قدمتموه لنا، ولا ننسى أبدا العون والمساعدة التي قدمتها لنا نقاباتكم وعمالكم في المصانع والموانى الفرنسية والجزائرية مع المنظمات الديمقراطية واليسارية الأخرى، حيث كانوا يضربون عن العمل لصالحنا ويعرقلون الإمدادات العسكرية والعتاد الحربي المهيأ والمعبأ لحربنا، فهذه أعمال عظيمة كنتم تقومون بها من أجلنا لا يستطيع القيام بها غيركم.

وسردوا علينا قوائم تلك الأعمال مفصلة بتواريخها وأماكنها وأنواع العتاد الحربي الذي عطلوه أو خربوه مما نجهل نحن الكثير منه، وهم الآن يتتبعون أخبار ثورتنا باهتمام زائد وكأنها ثورتهم، ولا عجب في ذلك فعدونا وعدوهم واحد وهمنا وهمهم واحد، فما يسرنا يسرهم وما يضرنا يضرهم. يبتهجون بانتصار ثوارنا، ويتألمون لما يلقاه شعبنا من تعنت الاستعمار وطغيانه مع المدنيين العزل انتقاما وتشفيا لما يناله جنده من المجاهدين البواسل الذين يسمونهم : فلاقة وقطاع طرق، وفي أحسن الأحوال متمردين وخارجين على النظام، وسبق للفيتناميين أن عرفوا كل تلك الأساليب في حربهم مع الفرنسيين.

وإكراما لنا في هذا الحفل الرائع جمعوا بعض أنباء ثورتنا في الأسبوع المنصرم (الأسبوع الأول من غشت) من بعض الصحف ووكالات الأنباء وأفادونا بها مشكورين، منها :

- أن الشعب الجزائري لم يحتفل بعيد الأضحى، وهو العيد الإسلامي الكبير عندنا، ولم يضح بالكباش كالعادة اكتفاء بتضحية أبنائه بأرواحهم، والجود بالروح أغلى غاية الجود أو كما يقول الشاعر القروي :

ليس من ضحى بكبشيَ غنم مثل من ضحى بنفس بشرية
أين من أدى زكاة من فتى جاد للأمة بالروح الزكية ؟!

وأخبرونا أن الثوار الجزائريين أسقطوا طائرة للعدو في الأوراس آخر الشهر المنصرم، وأسقطوا له أخرى في نواحي بسكرة يوم الثالث من هذا الشهر (أوت). وأن محكمة الجزائر أصدرت أحكاما بالسجن المؤبد على بعض

المواطنين، وبالأشغال الشاقة على البعض لمدة تتراوح ما بين عشر وعشرين عاما، والمحكمة المدنية حكمت بالسجن على عشرين متهما بالتآمر على أمن الدولة، وأن السلطة شددت القيود والرقابة في الكثير من البلاد وخاصة في بلاد القبائل.

وفي اليوم الخامس من الشهر (أوت) رمى شخصان قنبلتين يدويتين على مقر للشرطة بالعاصمة الجزائرية، فطوقت الناحية كلها للتفتيش والبحث عن المجرمين، كما قامت عمليات تفتيش عسكرية وبوليسية واسعة في عدة أماكن من عمالة قسنطينة التي نشطت فيها أعمال قتل الخونة والموالين للسلطة، تبعتها عمليات إلقاء القبض على المشبوهين في العزازقة والبويرة وغيرهما. وفي سوق أهراس ومعسكر وقع إحراق مـــزارع ضخمة للمعمرين الإقطاعيين كانت خسائرها باهضة و... و...الخ ، هكذا سردوا علينا أنباء ثورتنا من قصاصات جمعوها من بعض الصحف ليفيدونا بها في هذا اللقاء التاريخي الهام، وفعلا كان أغلبنا يجهل كل شيء عن مسير الثورة في هذه الأيام التي غبنا فيها عن الجزائر.

أما لقاؤنا العفوي مع (الاخوة العرب) فكان لقاء أخويا، لا شيء فيه سوى ما بدا من بعض الأفراد منهم، من جهل مطبق لا يكاد يقبل من أبعد الناس عنا من الأصدقاء فضلا عن الأشقاء : جهل بحقائق نراها بديهية عند الخاص والعام في وقت قَرَّبت فيه وسائل الإعلام المتطورة كل شيء وأصبح العالم بفضلها كأنه وطن واحد، جهل لا يكاد يصدقه من يسمع به لأول وهلة، فإذا صدمه بهت وسكت!! لا يدري ما يقول من أثر الصدمة المفاجئة التي تجعل الإنسان يستحي من الانتساب إلى هؤلاء الجهلة!! .. فقد وجدنا فيهم من

لا يعرف موقع الجزائر في العالم!! ..فمنهم من يحسب الجزائر أرخبيلا من عدة جزر، فإذا سألته في أي بحر؟ قال : في البحر الأبيض المتوسط ربما!! ومطط شفتيه!! كمن لا يهمه هذا الأمر!! ..ومنهم من يظنها من مجاهل إفريقيا البيضاء أو السوداء!! ومنهم -وهذا ألعنهم لأنه مثقف- من يعدنا فرنسيين تركنا ديننا ولغتنا من زمان عن حسن نية وطواعية، كما فعلت تركيا الكمالية بالإسلام والعربية!! ..فإذا قلت له : وما معنى ثورتنا على الفرنسيين ؟ قال ببساطة وقناعة : أحسب ذلك تمرد أفراد أو جماعات خرجوا على القانون !! .. يا سبحان الله!! هذا ألعن من أعدائنا الفرنسيين ... ومن فضل الله أن مثل هذا قليل لا وزن له في قومه ولا عند غيرهم، ولكن ثورتنا ستعرب عن نفسها وتعرف القاصي والداني بالشعب الجزائري، وستفرض على العالم وعلى مثل هؤلاء احترامها عندما يسمعون صداها ويعرفون مداها، فهي تعني من جملة ما تعني حرية الأرض وحماية العرض.

أوضـــــاع وترتيبـــات

كان الضيوف الوافدون موزعين على مراكز الإيواء المختلفة في دور الطلبة، والأحياء الجامعية، وفي المدارس ذات النظام الداخلي، وبكل مكان من هذه الأماكن ممثل (للجنة الوطنية للمهرجان) مسؤول عن ذلك المأوى، ومصالح صحية للتمريض والعلاج يشرف عليها طبيب وطاقم من المساعدين له، ولكل مجموعة صغيرة دليل مرافق يحسن لغتها. ووضعت مئات الحافلات الكبيرة والصغيرة في خدمة الوفود لنقلهم إلى ساحات التضامن، وحدائق الصداقة، أو إلى قاعات اللقاءات الفكرية، وأماكن السياحة والترفيه ونحوها.

أما الوجبات الرسمية التي نتناولها يوميا في مراكزنا فثلاث كلها ثرية غنية منوعة :(فطور الصباح) من السابعة إلى التاسعة، وهو وجبة كاملة فيها اللحم والجبن والزبد والمربى زيادة عن الخبز والقهوة والشاي واللبن، (والغداء) من منتصف النهار إلى الثالثة بعد الظهر، (والعشاء) من الثامنة إلى التاسعة ليلا، وهي كما قلت كاملة متنوعة متجددة، لا ينقصها سوى الفاكهة، لأن الفاكهة عندهم عزيزة أو مفقودة بحيث لم نرها في أسواق الخضر.

ورتبت في المهرجان مراكز لعدد من ندوات الحوار والنقاش والموائد المستديرة للسياسيين والمثقفين، وغير ذلك من اللقاءات حسب الاهتمامات المهنية والفنية والإبداعية والمباريات والمنافسات الرياضية المختلفة، وحفلات الترفيه والتسلية. الخ ..

فالذين يحبون الخطب الحماسية والقصائد الشعرية أو المحاضرات والمناقشات البناءة ففي اللقاءات المغلقة متسع لهم ، حيث تتمخض الآراء عن أفكار ومبادئ أو حقائق موضوعية تتحول أو تلخص في توصيات واقتراحات أو بلاغات، توزع فيما بعد وتنشر في الصحف، والإذاعات. وهي في معظمها تدور أو تتمحور حول : شجب الحرب والظلم والعدوان، والدعوة إلى التآخي والسلام، والتضامن مع الشعوب المضطهدة المناضلة، وتأييدها في حقها وتقرير مصيرها، والتنديد بالاستعباد والاستبداد وبالاستعمار والإمبريالية، ونحو ذلك.

لكن الجموع الحاشدة في الشوارع والساحات، وفي حدائق التضامن والتآخي، لم تكن في غالبيتها ترغب في الكلمات الرنانة تلقى في الأجواء

الطنانة، بقدر ما ترغب في التعارف الحي والتوادد المباشر مع الأفراد والجماعات في المحلات والطرقات، فتتبادل التحيات الطيبات مع عبارات المودة والصداقة، وبعد التعارف يتبادلون الهدايا والشارات والعناوين، ويتعاهدون على التراسل والتكاتب فيما بعد، أو التزاور والتحاور. وجميع تلك اللقاءات يسودها صدق اللهجة وحب المودة والتعرف على حقائق الأمور رغم الإيديولوجيات المتباينة أحيانا والعقائد المختلفة في الغالب فالملاحظ أن التعارف والتعاطف هو السمة البارزة بين الجميع، وعلى الخصوص مع الشعوب المنكوبة بالدكتاتوريات العسكرية، والمبتلاة بالتحكمات الاستعمارية، وخاصة الشعوب المكافحة التي تطالب بحقها، والثائرة التي تقاوم طغيان حكامها للتخلص من استبدادهم وحكمهم، ومع البولونيين بوجه أخص الذين رأيناهم يتسابقون إلى التودد والتعرف على ضيوفهم، فيتقربون منهم أكثر فأكثر في أدب ولطف ولباقة، يظهر ذلك في حدبهم واهتمامهم بهم، وفي استدعاء الأفراد والجماعات إلى بيوتهم لإكرامهم والتعرف عليهم في جو أهدأ من هرج الميدان وصخب المهرجان، كما يظهر في تجمع التوقيعات والعناوين بكل مكان في دفاتر صغيرة معدة لذلك يحملها الصغار والكبار. فهم شغوفون بالتعرف والتحبب والعطاء.

فحسن الضيافة والاستقبال فاقا كل التوقعات من شعب ذاق ويلات الحرب والخراب والدمار والتشرد في الحرب العالمية الثانية، وفقد عزته وكرامته وسيادته فيها، وهو الآن يتحفز للقيام من كبوته، ويتهيأ لاجتياز محنته، وللتأكد من حسن ضيافته أذكر مثلا : أن البولوني العادي وغير العادي تصادفه في الشارع وتسأله عن أي شيء يهمك معرفته يجيبك في حبور

وكلف زائد وأن استرشدت عن مكان ما كلف نفسه عناء السير معك إليه، فإن لم يكن يعرفه يقوم هو بالسؤال عنه بدلا منك حتى تصل إلى مرادك.

وعموما فقد لقينا، نحن المبتلين بالاستعمار والسيطرة الأجنبية، من وفود المهرجان مهتمين متفهمين لأوضاعنا ومشاكلنا، ووجدنا منهم مناصرين ومؤيدين لقضيتنا في حربنا التحريرية للتخلص من الهيمنة الفرنسية، ونرجو أن تترجم أقوالهم إلى أعمال لصالحنا.

الوفـــد الجزائري

شارك وفدنا الجزائري بمائة وثلاثين شخصا في التظاهرات الفنية والثقافية والرياضية المتنوعة للمهرجان بقدر الإمكان، بما فيه من فرق وهيئات ومنظمات تمثل التراث الفني والثقافي الجزائري، وممثلين المؤسسات ذات صلة بعالم الشباب والطلاب والرياضة والفن. عرضت عروضها وقدمت فنونها وتشكيلاتها، وشاركت في بعض المعارض والتظاهرات، وبعض المنافسات والمباريات، مما لا يسعني وصفه والتعرض له بتفصيل. وعرضت فيلما وثائقيا يصور الحياة العامة في الجزائر، زيادة عما قدموا من تمثيل حي لتراثنا وعاداتنا وجهادنا وإبداعاتنا.

أما وفدنا الكشفي الصغير الذي أنتمي إليه، وهو أقل الوفود الجزائرية عددا وأقلها أهمية في المهرجان، لعدم وجود منظمات كشفية في الدول الاشتراكية الشرقية، فلم يكن مكلفا بشيء سوى الانسجام والوئام في النطاق العام، لذلك كان أفراده أحرارا يتجولون كيف يشاءون ويشاركون حيث يريدون أو لا يشاركون، وهو يتألف من ثلاثة مرشدين، وبعض القادة لا يبلغ

عددهم أصابع اليد، هم : الأخضر الدومي رئيسا، ومحمود بن محمود مقررا، ومحمد الطاهر حمادة وعلي خياري، والمرشدون هم عبد الرحمن رمضان، ومحمد الصالح رمضان، والحفناوي هالي، هذا الذي حضي باهتمامي في هذه الرحلة لتوافق في الذوق والطباع بيننا ولأنه كان أكثر ملازمة لي من غيره.

صور من الرقص والغناء والموسيقى

قُدِّمت في هذا المهرجان المتنوع الكبير عروض وسهرات بالمسارح والقاعات المختلفة. تهدف إلى إبراز تراث الأمم والشعوب في ميادين الرقص والغناء والموسيقى، ومدى احتفاظ كل شعب بثقافته الأصلية وتعامله مع روح العصر وما تتصف به من تجديد في الحركات والإيقاع والآلات.

فهذه مثلا فرق تشيكية وسلافية وصربية تتميز رقصاتها الخفيفة السريعة بتداخلها مع الرقص الغجري ذي الجمال العفوي والإغراء الطبيعي، إلى جانب لوحات وتشكيلات متنوعة أخرى تزينها ملابس الراقصين والراقصات ذات الألوان الزاهية البدوية المعبرة عن روح الفلاحين المحبين لأرضهم وتراثهم، وهم يؤدون رقصهم وغناهم بالإيقاع على كثير من آلات العزف والنفخ، وأحيانا مع بعض الطبول وضرب الأرض بأحذيتهم الخشبية الكبيرة.

وهذه فرق ريفية بولونية وروسية ومَجَرية تحافظ على تقاليدها وطقوسها على اختلاف طبوعها وطباعها، تقدم عروضا لا حصر لها تمثل بغنائها ورقصها وموسيقاها طبيعة الحياة الجبلية الصعبة، والحياة السهبية السهلة في كثير من البراءة والجمال والعفوية. وهذه فرق شرقية من الصين والهند واليابان وغيرها تتميز باللطف والرقة والدقة فيما تقدم من غناء ورقص

وموسيقى مع الانسجام التام بين الحركة والنغم الحالمين وبين الملابس الكاسية الزاهية المعبرة عن الطابع الشرقي الفطري المتميز بالخفر والاحتشام.

ويا بُعد ما بين أصول الفنين الشرقي والغربي رغم التداخل والتلاقح البين في كثير من العروض وبين التقليد البليد في بعضها، المقدمة من الطرفين.

فالرقص الأوربي (لا فرق بين شرقيه وغربيه) أساسه النط والقفز واللف والدوران في حركات رياضية سريعة، جماعية أو فردية، تغلب عليها الجلبة وخفة الحركة، لعل السبب في ذلك أن سكان المناطق الباردة بحاجة إلى كثرة الحركة لجلب الدفء ودفع البرد والتجمد. والرقص الشرقي في أصوله الأساسية هادئ حالم لطيف يعبر عن أسرار الشرق وفلسفاته بحركاته وإيماءاته، وهو أقرب ما يكون إلى رقصنا الحضري والبدوي على السواء، وكذلك الغناء والموسيقى الشرقية الأصيل منها والمستحدث، إلا ما مسخه التقليد والتجديد البليد.

أما الموسيقى الغربية التي يغلب عليها الصخب المنبعث من الآلات النحاسية والطبول الضخمة وغيرها من الآلات المعدنية الحديثة ومزاميرها، ذات الأصوات العالية التي تصخ الآذان وتفلق الأذهان، وتشبه الرعود والعواصف في بعض السنفونيات، فأنا لا أطيق سماع هذا النوع منها لأنه يزعجني دويه وصخبه فاضطر إلى سد أذني أو أخرج فرارا من أنكر الأصوات وابغضها إلي.

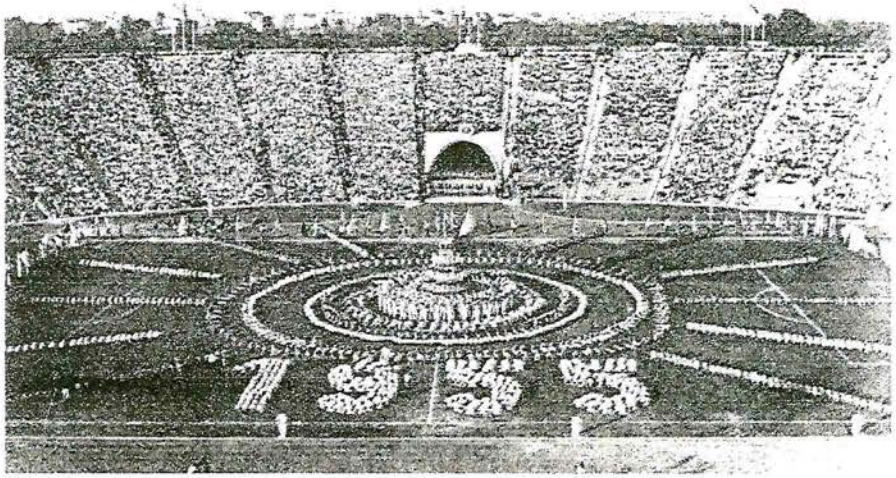

افتتاح المهرجان العالمي الخامس للشباب والطلبة
بالملعب البلدي لفارصوفيا يوم 1955/08/10

فرصوفيا اليوم.. والخدمات الاجتماعية بها

فالعاصمة اليوم أشبه شيء بخلية نحل كبرى في حركتها : سواء في أعمال المهرجان العالمي، أو في عمليات البناء والتعمير. فهي ورشة عمل عظيمة تتعاقب عليها أفواج العمال بالليل والنهار، ولا تعرف الفتور والتوقف.

يتمتع عمالها -كما في بولونيا كلها- بنظام المعاشات قبل الستينات، وبجميع حقوق العامل والموظف، إلى أنواع من المساعدات الاجتماعية التي تمنحها النقابات ومجالس الشعب وهذه المعونات الاجتماعية التي يستفيد منها العمال والكادحون هي من عناصر توفير الاستقرار والأمن والطمأنينة لهم.

منها على سبيل المثال : التعويضات العائلية، وإعانات الولادة والوفاة والمرض وعلى الأخص المعونات الطبية التي تتمتع بها الأم والطفل، وأولوية دخول أبنائهم إلى المدارس ودور الحضانة والتمتع بإقامات مجانية في بيوت الراحة والاستجمام للكبار، ومعسكرات ومخيمات العطلة للصغار صيفا وشتاء، زيادة عن مجانية العلاج. وغير العامل أيضا يستطيع أن يتلقى العناية الطبية المجانية إذا أصيب بأحد الأمراض الاجتماعية كالسل والأمراض الوبائية المعدية.

بالإضافة إلى أن العاملات باستطاعتهن وضع أطفالهن الرضع في حضانات خاصة على الدوام أو أثناء ساعات العمل، يقوم عليهم فيها موظفون مؤهلون أكفاء، وتنتشر هذه الحضانات في جميع الأحياء السكنية مثلما تنتشر المدارس الابتدائية وأكثر.

ثم إن هناك دورا للشيوخ والعجائز المقعدين والمتقاعدين والعجزة تقوم الدولة والنقابات معا بالإنفاق عليها وعلى من فيها، كما تقوم دوائر المعونة الاجتماعية بخدمات كثيرة لهؤلاء وللواقعين في الضائقات والنكبات.

والتعليم في فرصوفيا وفي بولونيا كلها إجباري مجاني في جميع مراحله، وفيه التكوين المهني والتقني والعلمي والفني، وإلى جانب التعليم هناك النوادي الثقافية والمكتبات العمومية والملاعب الرياضية ...الخ.

والحدائق والمعاهد والمسارح والسينماءات أكثر عددا من المقاهي والملاهي والمحلات التجارية، وتسعيرة الدخول إلى المسرح والسينما رمزية أكثر منها تجارية، وما يعرض في هذه القاعات والمحلات ليس من قبيل التلهية وقتل الوقت، بل فيها فضلا عن الترفيه تعليم وتربية، وفيها تثقيف وتوعية، فهي عبارة عن مدارس أخرى ومعاهد لخدمة الجماهير وتكوينهم نفسيا وإيديولوجيا.

يقال إن أعلى طبقة عندهم هي طبقة العمال، فالعامل من أي صنف كان يعتبر في المقام الأول، عكس النظام الرأسمالي الذي يستنقص العامـــل ويستغله ويمتص عرقه.

والوقت عندهم أغلى شيء يهتم به ويحافظ عليه، على العكس منا ومن الشرقيين عموما الذين لا يقيمون وزنا للوقت، مع أن الزمن عامل مهم جدا في الحياة من أهمله فقد أهمـــل نفسه، وقد صدق من قال : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

ولعل أهم وأعظم ما سمعناه وفوجئنا به في هذا النظام الاشتراكي الذي لا نعرفه هو مجانية التعليـم في جميع مراحله، ومجانية العلاج والمساعدات الاجتماعية المختلفة.

الاشتـــراكية البولونيـــة

يعيش البولونيون في بلادهم حياة اشتراكية ديمقراطية شعبية، تفرض الحكومة على كل فرد منهم نظاما إجباريا للعمل والإنتاج، وتكفل للجميع المساواة في الحقوق والواجبات، لذلك يُقبِل كل مواطن ومواطنة على عمله وأداء واجبه بجد واجتهاد وهو مطمئن مرتاح البال، لا يفكر في لقمة العيش ولا حتى في تكاليف أطفاله.

فالدولة تضمن للمواطن، السكن والعمل والعلاج والتعليم، ولا يمارس الفرد سوى العمل الذي أعد له حسب كفاءته واستعداده، فإذا شاخ وعجز عن العمل، فهناك دور خاصة بالشيوخ والعجزة تنتظره تقوم بخدمتهم وكفالتهم. وليس في بولونيا بطال ولا متسكع أو متسول في الطرقات، كما علمنا من هذه النظم وحسبما شاهدنا في فرصوفيا فهذا عالم جديد نكتشفه لأول مرة، لا عهد لنا به من قبل، عالم الاشتراكية العجيب الغريب بالنسبة لنا أبناء المستعمرات بالخصوص، وإن كنا لا نجهل أن في النظم الرأسمالية أحزابا يسارية

(اشتراكية وشيوعية). ولكنها أقلية لا يعتد بها ولا تستطيع أن تفعل شيئا أمام الطغيان الإقطاعي الرأسمالي.

فهذا العالم الاشتراكي مغاير تماما للعالم الذي نعرفه في بلادنا وحتى للعالم الديمقراطي الحر، كما يسمونه، الذي نسمع به ونعرف دعاياته ومغرياته، ولكنه لا يخلو من الطبقية والميز العنصري والمذهبي، فالعمال الكادحون فيه غير الأغنياء وأصحاب الإقطاع والحيثيات، والبروتستانت غير الكاثوليك، ولا تسال عن غيرهما من بقية الأديان الأخرى، وأما الملونون فلا تسل عن بؤسهم وشقائهم هنالك.

هذا عالم جديد في تفكيره، جديد في نظمه، جديد في أعماله وأوضاعه، جديد في كل شيء –حسب ما يبدو لنا– لا يمت إلى العالم الإمبريالي الغربي الذي نعرفه في فرنسا أو نسمع به في بريطانيا وأمريكا وغيرهما من الدول الديمقراطية.

أشياء صغيرة لها دلالات كبيرة

وللتدليل على ما فوجئنا به مما لم نألفه أو نعرفه في بلادنا أذكر بعض الأمثلة البسيطة كواقعات حال حدثت لي دون أن أبحث عنها، من ذلك أني عزمت ذات يوم أن أمسح حذائي من الأتربة وألمعه كما نعمل في بلادنا، فبحثت عن ماسحي الأحذية في الصباح وفي المساء أياما فلم أعثر على واحد، وبعد لأى ويأس، عدت إلى دليلنا أسأله عن ماسحي الأحذية، فقال : لا يوجد عندنا من يمسح الأحذية للناس، قلت : لماذا ؟ قال: " لا نرضى لأحد أن يركع ويمسح رجل أحد، مضى ذلك العهد الذي يخضع فيه المستضعفون السادة

والنبلاء ويقبلون أقدامهم! " قلت وكيف تصنعون إذا اتسخت أحذيتكم؟ قال :"هذه أمور يقوم بها كل واحد في منزله، كما يقوم بمشط رأسه وغسل وجهه وحلق ذقنه، لا تحتاج إلى من يقوم بها لغيره". قلت : هذا بالنسبة للمقيمين أما المسافرون مثلنا، فكيف يتسنى لهم ذلك وهم بعداء عن منازلهم ؟ قال :"على المسافر أن يحمل معه أدوات المسح والتلميع كما يحمل أدوات النظافة الأخرى: الصابون والمنشفة والفرشاة والمشط...الخ.

قلت لم نكن نعرف هذا عندكم، ولذلك لم نحملها معنا ظنا في توفر الماسحين في كل مكان كما هو الشأن عندنا. قال :"ذلك عندكم في النظم الإقطاعية والرأسمالية التي يسود فيها السادة ويستذل فيها الضعفاء ويطغى الطغاة ويهان المستضعفون، فيستسخرونهم ويستعملونهم في خدمتهم كالعبيد، نحن هنا سواسية لا سيد ولا مسود، ونتفاضل بالعمل والكفاءة فقط".

قلت : "كيف أصنع أنا وأمثالي الزوار الذين لا يعرفون هذه النظم الاشتراكية؟ قال هناك فندق فخم في الساحة المركزية أعد خصيصا للضيوف الأجانب أمثالكم ممن يأتون من العالم الرأسمالي يوجد بمدخله كرسي لماسح الأحذية وكل ما تحبون من الرفاهية، وأعطاني اسم الفندق وعنوانه فقصدته. وبعد مسح الحذاء دفعت الثمن غاليا بما لا يقل عن شراء حذاء جديد، لو كنت عرفت هذا مسبقا لاشتريت حذاء جديدًا واكتفيت ولكن! وهل تنفع شيئا لكن؟!

هذه واحدة. وأخرى لا تقل عنها غرابة بالنسبة لي وهي أنه وقع لي إسهال في الأيام الأولى بسبب تغير المآكل والمشارب، وكان من عادتي أن أعالج الإسهال في السفر بقضم شيء من الشكلاطة بدلا من الأدوية الكيماوية

الصيدلية، وإذا كنت مقيما في منزلي أكتفي بتناول أطعمة الأرز والحمص أو شيئا من العسل فتقبض بطني وأشفى من لإسهال في الحال.

بحثت عن الشكلاطة في كل مكان فلم أجدها، وسالت الدليل عن مكان وجودها، فسكت قليلا يتأمل ثم قال : توجد في مكان واحد بقلب المدينة –ذكره لي– قرب فندق السياح فإن لم تكن فيه فلا أمل في وجودها. قصدت المكان، واشتريت قطعا منها قليلة مطعمة بالبندق والفتسق –وهو النوع الوحيد الذي وجدته– ولكن ثمنها كان غاليا جدا يمكن أن اشتري به عشرات أمثالها في بلادي، اشتريتها مضطرا لها كدواء للعلاج، كما تعودت أن أفعل في السفر كلما بدأتني أعراض الإسهال الحاد لأنه يهد قواي.

سألت الدليل عن سبب ندرة الشكلاطة وارتفاع سعرها في بلادهم فقال :"هذه كماليات لا تقوم عليها الحياة، ولذلك لا نقيم لها وزنا ولا نهتم بها، ولا يشتريها سوى الزوار الأثرياء أمثالكم! ..." هذه وغيرها أمثلة صغيرة، ولكنها ذات معان كبيرة سقتها للعبرة والذكرى، وقد أخذت منها ومن غيرها دروسا عملية في فهم الاشتراكية، وإن دفعت ثمن بعضها غاليا فلست آسفا على هذا التعلم.

المرأة عديلة الرجل

وهناك مظاهر أخرى كثيرة للاشتراكية تخالف مألوفنا نقف أمامها مشدوهين مثل رؤية المرأة في أعمال كثيرة هي عندنا من اختصاص الرجال، مثل سياقة الشاحنات والحافلات الكبيرة وعربات الميترو وسيارات الأجرة، ورأيناها في ملتقيات الطرق شرطية تراقب حركة المرور وتصرفها، وتعمل

في المصانع والمعامل كما يعمل الرجل بلا فرق. هذا في العاصمة ولعل نفس الشيء في أمهات المدن الأخرى، فالمرأة عندهم عديلة الرجل، وهي نصف المجتمع فلماذا لا تشارك في بنائه؟ أما في الريف فقد رأيناها من خلال نوافذ القطار، وهو يقطع بنا الحقول والمزارع في السهول الشاسعة، وهي تعزق الأرض وترعى المواشي وتحمل الأحمال الثقيلة مثل الرجال تماما.

قد يبدو تعجبي وانبهاري من وضعية المرأة في هذا البلد الأوربي في غير محله اليوم، ولكن يجب ملاحظة أن هذا التعجب كان في سنة 1955، ومن رجل يخرج لأول مرة ليطلع على العالم وبعيد حرب عالمية طاحنة غيرت أوضاعا كانت موروثة من عهود الجهل والتخلف، كانت عامة في الشرق والغرب على السواء حتى في أوروبا نفسها قبل الحربين العالميتين.

أما اليوم فمشاركة المرأة في ميادين الحياة المختلفة تبدو موجودة وعادية حتى في العالم الثالث ونحن جزء منه، فهي قاضية في المحكمة ومحامية، وهي مسؤولة سامية في المصالح المدنية وفي الإدارات العليا والوزارات، ولها شخصية بارزة في الأعمال الثقافية، ونائبة في مختلف المجالس العليا والدنيا، إلى غير ذلك من الأعمال في قطاعات الإنتاج المختلفة بالإضافة إلى الأشغال المنزلية وتربية الأطفال فالمرأة اليوم تشكل جزءا لا يتجزأ من التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي هزت العالم بعد الحرب وكادت تعم المجتمعات الراقية والسائرة في طريق التطور.

حـــظيرة تفريـــخ بشـــرية

كنا في زورة لأحد الأحياء السكنية من النوع الشعبي في العاصمة، ولاحظ رفيقي الشيخ الحفناوي عدم وجود الأطفال في الشوارع والأزقة وقال : أيمكن أن تكون هذه الحارات والعمارات بلا أطفال ؟! مع أن الشأن عندنا في فصل الصيف وعطلة المدارس أن الأطفال يـــملأون الأزقة والـــساحات، ويقلقون المارة بلهوهم وعبثهم.

ودفعنا الفضول وحب التطلع إلى سؤال دليلنا عن سبب خلو أحيائهم من الأطفال، قال : أويهمكم رؤية أطفالنا ؟ قلنا نعم، قال لماذا ؟ قلنا لنرى الفرق على الأقل بين أطفالنا وأطفالكم، قال سوف لا ترونهم في الطرقات والساحات ولا حتى في الدور والعمارات، قلنا كيف ذلك ؟! قال لأنهم لا يعيشون مع والديهم وأوليائهم فازداد تعجبنا، وقلنا أين يعيشون إذن؟ قال في دور خاصة بهم، هل تريدون زيارة هذه الدور؟ قلنا نعم، فسار بنا إلى أقرب دار حضانة في الحي، فوجدنا أطفالا رضعا في مهاد صغيرة مصطفة، بعضهم نائم والبعض يتحرك في جذل وحبور، يطوف عليهم ولدان مهيأون لخدمتهم من الحور العين في خفة ورشاقة الفراشات يقمن على إرضاعهم وتنظيفهم ومداعبتهم كأحسن الأمهات. والأطفال موزعون على عدة حجرات كل حجرة بها نحو العشرين أو الثلاثين مهدا أو قفصا حسب سن الأطفال، فحجرة لأبناء الستة شهور الأولى مثلا، وحجرة لأبناء الستة شهور الثانية، وحجرة لمن بدأوا الحبو، وحجرة لمن بدأوا المشي، مع أدوات لعب وتلهية خفيفة مختلفة بألوان زاهية، وهكذا وجدنا حظيرة تفريخ بشرية ما كنا نحلم بها !!

سألنا عن نظام هذه المؤسسة ومن ينفق عليها؟ فقيل لنا : إن الأطفال يمضون هنا سنتين ثم ينتقلون إلى دار حضانة أخرى لمدة سنتين لرعايتهم وتعلميهم الكلام واللعب في نظام وانسجام، ثم إلى دار أخرى لسنتين أخريين يتمرسون فيهما على أنواع من الرياضة والتسلية والتدريب على آداب الأكل والمشي ومبادئ القراءة والكتابة والحساب مع تحفيظ الأناشيد والأغاني التي تناسبهم. وبعد رياض الطفولة هذه يلتحقون بالمدارس الابتدائية الرسمية وقد تهيأوا لها واستعدوا خير تهيئ وخير استعداد.

أما الذي ينفق على هذه الحضانات والرياض فالدولة من جهة، والمجالس الشعبية ومنشآت العمل ونقابات العمال من جهة أخرى. قلت هذا نظام رائع بديع لإنشاء نشء منسجم متلاحم، في شعب يعمل فيه النساء والرجال والأباء والأمهات على السواء، فهو نظام يريح الوالدين من أتعاب تنشئة الأطفال وتكاليفهم وخصوصا الأمهات العاملات.

ولكن الذي حيرني هو مآل الأسرة ودورها في المجتمع فالأسرة كما نعلم هي الخلية الأولى لكل مجتمع، أو هي المدرسة الأولى له، وخاصة الأم وهذا النظام الذي وقفنا عليه يبدد الكيان الأسري ويقضي على الترابط والتعاطف العائلي بين الأولاد ووالديهم وأقاربهم، حيث ينشأ الأبناء في غير أحضان آبائهم وأمهاتهم، فلا يعرفون عطف الوالدين وحنانهم وحبهم، وبالتالي فلا يُكِنُّون لهم حبا وولاء مثل قطعان الخرفان والجديان المفصولة عن أمهاتها.

هذه الدور والمؤسسات هي عندي مثل معامل التفريخ تماما تنشئ الأجيال إنشاء آليا بعيدا عن أمهاتها وآبائها لتتعلق هذه الأجيال في رأيي بحكوماتها ومنظماتها بدلا من آبائها وأمهاتها، وهي لعبة خطيرة وإن بدت رائعة جميلة. ترى هل يكون نشء هذه الحضانات ورياض الأطفال نشئا سويا طبيعيا مثل باقي الأطفال الذين تربوا في أحضان والديهم، وتغذوا بلبان أمهاتهم، وتمتعوا بحب ورعاية أهاليهم وعطفهم وحنانهم، أم يكونون نشئا آخر ؟!

هل يعوضهم قيام هؤلاء الموظفين بشؤونهم، الذين يتناوبون عليهم أناء الليل وأطراف النهار، مهما بلغ اعتناؤهم بهم، هل يعوضهم عن الوالدين والاخوة والأقربين؟! لست أدري إن كان هذا البديل سينجح النجاح المطلوب في التنشئة الطبيعية الصالحة، هكذا وقفت مليا أما بعض مظاهر الاشتراكية الشرفية وأطلت التفكير والتأمل في بعضها، فاستحسنت ما استحسنت وأنكرت ما أنكرت واحترت في بعضها فلم أهتد إلى موقف معين وهذا أمر طبيعي لكل من له قلب وعقل وإرث ثقافي وحضاري، فلا بد أن يستعمل رأيه فيما يرى فيقبل ما يقبل ويرفض ما يرفض، وهذا الذي عرضته ما هو إلا نماذج ومثل قليلة مما شاهدت.

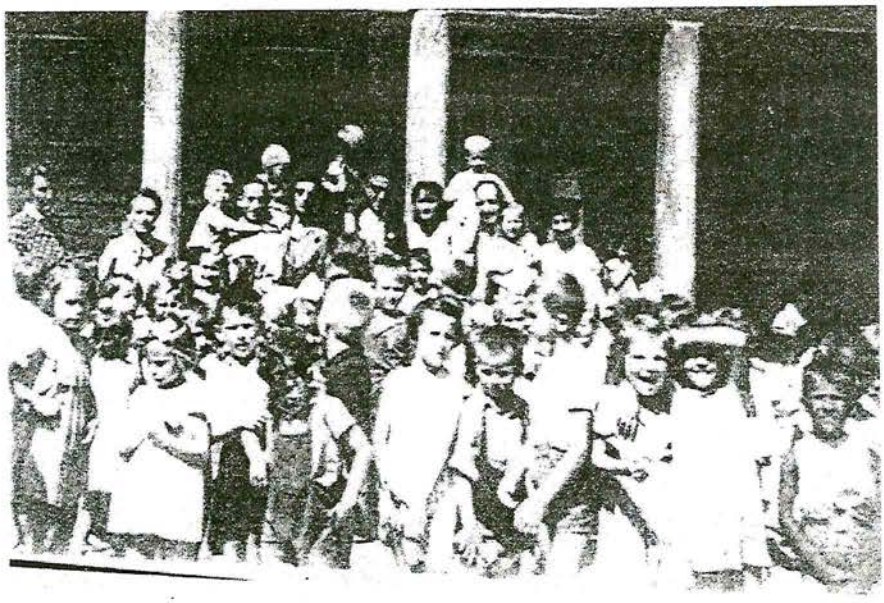

في دار من دور الحضانة بفرصوفيا سنة 1955 – أطفال دار الحضانة وخلفهم بعض العناصر من وفدنا: رمضان – الدومي هالي – وبعض الزوار.

الديانـــة في بولـــونيا

كانت الكاثوليكية قبل الحرب العالمية تحضى بسلطة أكبر ونفوذ أوسع في البلاد البولونية بالنسبة إلى غيرها من المذاهب والأديان، وكانت تلقى دعما عظيما من الدولة وتعصبًا وتمسكًا أعظم من الشعب.

وعلمنا أن دستور الدولة الديمقراطية الشعبية اليوم في بولونيا يترك الخيار للمواطن في أن يتدين أو لا يتدين، فهو حر في اختيار الدين أو المذهب الذي يريد اعتناقه، مثل ما هو حر في أن لا يدين بدين من الأديان.

فالدولة تعطي كامل الحرية للمواطن في ذلك، ولا تتدخل في معتقده الديني، وذلك حسب مرسوم خاص بحرية العقيدة والفكر، والقساوسة يباشرون طقوسهم مع مريديهم بكامل الحرية ومئات الكنائس التي هدمت في الحرب أعيد بناؤها بمساعدة الدولة، وكمثال على ذلك مدينة فرصوفيا التي تهدم فيها خمسة وخمسون كنيسة في عهد الاحتلال الهتليري، فقد أعيد بناؤها تقريبا، ومنها ستة وعشرون كنيسة بفضل الدعم الحكومي.

وبناء على هذه المعلومات الشائعة الذائعة في هذا الحكم الشيوعي، أردت أنا والشيخ الحفناوي هالي أن نتحقق من ذلك بالقيام بزيارة إحدى الكنائس في جولة حرة صبيحة يوم من أيام الآحاد التي يتردد فيها المسيحيون بكثرة على كنائسهم فقصدنا أحد الأحياء ودخلنا كنيسته فماذا وجدنا ؟ كان الوقت الحادية عشر صباحا وباب الكنيسة بين مفتوح وموصود، فاقتحمناه ودخلنا فلم نجد في الكنيسة أحدا وتعجبنا، ثم قلنا لعلهم قاموا بشعائرهم وخرجوا.

وبعد طواف خفيف بها قرعنا أحد الأبواب فخرج لنا شاب حليق أنيق، قلنا: نريد أن نرى المسؤول عن الكنيسة، قال : أنا هو، قلنا نحن من ضيوف المهرجان قال: يبدو هذا واضحا، قلنا، نريد أن نعرف التدين والكنائس في هذا العهد الجديد لبولونيا، قال : هما في أحسن حال، قلنا : هل يتردد المريدون على الكنيسة ؟ قال : نعم وبكثرة، قلنا ما بال الكنيسة اليوم فارغة، قال : جاء المصلون وقاموا بطقوسهم وشعائرهم ثم انصرفوا. قلنا : وكان عددهم كبيرًا؟ قال : نعم لم يبق مكان شاغرا.

ولاحظت طاولة أمامي في الصفوف الأولى مغبرة، فهمزت صاحبي من طرف خفي، وأمررت إصبعي فوقها والشاب ينظر، فترك إصبعي خطا واضحا عليها مما يشعر بالإهمال الكلي الكامل للكنيسة فضلا عن المجيء للصلاة، ثم صافحنا الشاب المسؤول وشكرناه على المعلومات القيمة التي قدمها لنا وانصرفنا...!

قال صاحبي : ما راء كمن سمع، لقد أحسنا صنعا بهذه الزيارة الحرة التي أوقفتنا على الحقيقة عارية لا غبار عليها، قلت الفضل للغبار الذي كشف لنا الحقيقة، قال نعم، لقد فضحت الرجل وكشفت كذبه. وعلمنا أن الشيوعيين كالديمقراطيين يكثرون من الإعلام والدعاية، فلا يغتر الإنسان بدعاية هؤلاء وأولئك. ولكن المحير حقا هو أن هذا الشعب الشديد التمسك بدينه كما يشاع عنه، كيف يمكن أن يتخلى عن تدينه بسهولة مرة واحدة؟ أم إن المشهد الذي رأيناه في الكنيسة لا يكفي للحكم على شعب كامل ؟

قد يقال : إن الناس على دين ملوكهم، فلما كان الحكام شيوعيين لا يقيمون وزنا للدين يجب أن يكون الاتباع كذلك، ولكن هذه المقولة لا تنطبق على كل شعب، إلا إذا كان الحكام يتشددون في ذلك ويقيمون محاكم للتفتيش عن المتدينين وهذا لم نسمع به في بولونيا وقوانين الدولة تعطى للمواطن كامل الحرية في أن يتدين أو لا يتدين، ولا تتدخل في معتقده كما ينص على ذلك دستورها.

التـــنزه يـــوم الأحد

ومما شد انتباهنا في فرصوفيا تعطل الأعمال كلية أيام الآحاد وكأن الأحد يوم عيد يتوقف فيه العمل، ويخلد فيه الناس للراحة والتنزه حتى دليلنا (تادي Tadet) يتخلى عنا ليفرغ إلى التنزه مع زوجته الشابة الجميلة.

فينتشر الناس يوم الأحد في الشوارع والساحات، وفي الحدائق والغابات، أو حول الأنهار والبحيرات، للتنزه والتسلية، شبابا وشيوخا، نساء ورجالا، وقد ارتدوا أجمل الثياب وتحلّوْا بأبهى زينة، وتطيبوا بأحسن العطورات.

فهذه الأيام هي الأعياد الأسبوعية التي يرتاحون فيها من العمل الجاد المضنى في البناء والتشييد، يبتعدون فيها عن هدير نواعير المعامل والمصانع، وأصوات محركات الحافرات والرافعات والشاحنات وغيرها، وينسون فيها هموم الحياة وأتعابها. لذلك يقضون راحتهم الأسبوعية هذه في التلهي والتمتع بأنواع من الترفيه والتسلية واللعب كالأطفال شأن الأوروبيين عموما، ولكن يبدو لي أن هؤلاء أشد كلفا بذلك واهتماما.

فمنهم من يذهب إلى الملاهي، في النوادي المختلفة والمقاهي، ومنهم من يذهب إلى حلبات السباق والمباريات، أو إلى النوادي الثقافية والمكتبات، وقد يعقدون مجالس للرقص والغناء والموسيقى في الساحات والحدائق العامة. إلى غير ذلك من التلهي والتمتع بالراحة. فالقوم على ما يبدو ماديون دنيويون على دين ماركس ومذهب لينين، لا شأن لهم بالعبادات والطاعات وغيرها من القربات، ولا حتى الاشتغال بأطفالهم لأن الدولة الاشتراكية الشعبية تكلفت لهم بتنشئة أبنائهم وتربيتهم وتعليمهم.

فالمولود من يوم يولد تقوم به الحكومة ومنظماتها إلى أن يتخرج للعمل ويتزوج، فينتقل في أماكن معينة من دور الأمومة والحضانة، إلى رياض الأطفال فمختلف أنواع المدارس الابتدائية والثانوية. فلا هم للوالدين بأولادهم، وغاية ما هنالك أنهم يذهبون لزيارة أطفالهم مرة أو مرتين في الأسبوع أو في الشهر لرؤيتهم في الحضانات والرياض المعدة لهم، وبذلك تموت فيهم وفي ناشئتهم الروح العائلية، وعواطف الأبوة والأمومة، ومحبة ذوي القربى من الخؤولة والعمومة، ويقضي على نظام الأسرة الخلية الأساسية لكل مجتمع.

لأن الوالدين لا يرعون أطفالهم المفصولين عنهم، وبالطبع لا ينظر هؤلاء الأطفال إلى والديهم وأقاربهم إلا كما ينظرون إلى عامة الناس دون ميز. وقد سبقت الإشارة إلى هذه التجربة الخطيرة عند الكلام على معامل التفريخ هذه! ...

دليلنا في فرصوفيا السيد المحترم – تادي مع زوجـــــته الجميلة يتنزهان يوم الأحد (عطلة الأسبوع)..1955 في إحدى ساحات العاصمة فرصوفيا .

ومعذرة عن هذا الاستطراد، ولنعد إلى حديثنا عن يوم الأحد وانتشار الناس فيه، وعلى الخصوص الأحد الذي توسط أيام المهرجان رأينا البولونيين يبالغون في التقرب إلى ضيوف المهرجان والتودد إليهم وطلب توقيعاتهم ومرافقتهم. وإن كان هذا الاهتمام عاما في سائر أيام المهرجان، ولكن يوم الأحد هذا امتاز عن بقية الأيام بالكثرة والتهافت إلى حد الفضول أحيانا. وكأنهم مطالبون بذلك من طرف حكومتهم ومنظماتهم ومجازون عليه ومكافأون، فترى الواحد منهم يحمل دفترا صغيرا وقلما يتقدم إليك راغبا منك التوقيع، وإن أمكن اسمك وعنوانك ووطنك، وإلا فالإمضاء وحده كاف. فإذا وقفت لواحد ولبيت رغبته انهال عليك أفراد وربما جماعات لنفس السبب.

يتفقون في التلطف والتودد والتعرف إليك ودعوتك إلى تناول شيء معهم، أو مرافقهم إلى أماكن عامة أو خاصة، يتفننون في ذلك تفننا عجيبا رغم النكبات التي حلت بهم في الحرب، ورغم الصعوبات التي اعترضتهم في إنشاء دولتهم وبنائها من جديد، لعلهم واجدون في ذلك تعويضا عما قاسوه في الحرب من مآسي التشريد والغربة، وتنفيسا أو ترويحا من العناء والجهد الذي يبذلونه أيام الأسبوع الأخرى في البناء والتعمير.

وانظر أمثلة من هذا الإقبال والتهافت على الإمضاء والتعرف على ضيوف المهرجان في القسم الشعري من هذه السوانح والارتسامات، ولا سيما عنوان (الغيد والغلمان) من قصيدة (شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب والطلاب).

في حديقة الحيوان

في أحد تلك الأعياد الأسبوعية (يوم الأحد 55/08/07) التي يوليها البولونيون عناية واهتماما فائقين، خرجت وصاحبي (هالي) إلى حديقة الحيوانات بفرصوفيا، حيث طفنا بها وألممنا بأهم ما فيها من حيوانات العالم وأشجاره وطيوره وحيتانه، وبينما كنا واقفين أمام بركة كبرى نتأمل الدببة البيضاء والسمراء والبنية، وهي تتهارش وتغوص أو تخرج من الماء، تقدمت فتاتان شقراوان كأنهما توأمتان، سألتنا إحداهما بلسان فرنسي مبين، هل تتكلمان الفرنسية ؟ قلنا : نعم، ولم يخامرنا شك في أنهما ليستا من فرنسا، لأن شقرتهما واضحة كأهالي الشمال الأوربي.

ورغبتا منا أن نسمح لهما بالتحدث معنا ومرافقتنا، فلم نمانع، وقد لاحظنا على وجهيهما سمات الجد والصدق والبراءة. ومع ذلك توجست أنا خيفة منهما أن تكونا فرنسيتين لطلاقة لسانهما وفصاحتهما الفرنسية بلا لكنة أو أي لهجة محلية، ولكن شقرتهما الطاغية تجعلني أتردد في نسبتهما لفرنسا، من يدري فالجوسسة والجاسوسية لا تعرف جنسية، المواطن وغير المواطن أمامها سواء، ولذلك فأنا في ريب منهما حتى يتضح لي أمرهما.

وكما سألتانا عن هويتنا وعن اسمينا ووطننا، سألناهما من تكونان ؟ قالتا : اسياغك اصوفي واسياغكا إيلان، ونحن شقيقتان، قلنا : وهذه اللغة الفرنسية الفصيحة التي تتكلمانها بيسر وطلاقة كأحسن أبنائها قالتا : نشأنا في فرنسا التي هاجر إليها أهلنا وقت الحرب وكنا صغيرتين، فتعلمناها هنالك من

الصغر وأتقناها في المدارس الابتدائية والمتوسطة. ولما عدنا بعد الحرب أتقنا لغتنا، فنحن الآن نحسن التكلم باللغتين بلا كلفة.

وأردفت إحداهما ولكن المتكلمين بالفرنسية لا نعثر عليهم هنا بسهولة، ولذلك رغبنا منكما التحدث بها معكم، فنحن نحبها كلغة ونود التكلم بها ما وجدنا إلى ذلك سبيلا، فاطمأننت إليهما وزال عنى ذلك الهاجس. وسرنا نتجول معهما بلا كلفة ولا حرج على ضفة النهر، وفي المتنزهات والساحات، نتجاذب أطراف الحديث.

اطلعنا من خلال ذلك على كثير من الحقائق والمعلومات، التي تجري في هذا العالم الجديد كل الجدة بالنسبة لنا، كما أطلعناهما على أحوالنا وأوضاعنا مع الاستعمار الفرنسي فدهشتا، ولا حظنا لهما أن الفرنسي في بلاده شيء وفي مستعمراته شيء آخر، وأن (الحرية والأخوة والمساواة) شعارات فرنسية للاستهلاك العالمي قد تطبق في بلادهم مع أولادهم وإخوانهم أما في الخارج وفي المستعمرات بالخصوص فشيء آخر! ...

في أثناء الطريق لحقت بهما فتاة في مثل سنهما، قالتا : إنها صديقة وجارة لهما في السكن وزميلة تقرأ معهما في الجامعة، اسمها (جنين)، ولكن هذه لا تحسن كلمة بالفرنسية، فحرمنا متعة الحديث معها، كما حرمت هي لذة التحدث معنا. وكنت ألاحظ على (جنين) الحيرة والأسف والارتباك لعدم مشاركتها لنا فيما كنا نخوض فيه من شؤون وشجون، ماعدا بعض الكلمات والنكت التي كانت تترجم لها، فترد عليها بالإماءة أو بالابتسامة المتكلفة، وماعدا ذلك فهي حاضرة غائبة، مسكينة هذه الفتاة التي تعاني من الغربة

والغيرة والوحدة ما تعاني معنا. وكانت هذه الجولة إحدى مواطن الارتكاز في هذه (السوانح والارتسامات) في القسم الشعري بالخصوص أنظر قصيدة (شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب والطلاب بوارسو)[1].

جولات وتطلعات أخرى في العاصمة

كنا نخصص نصف النهار الأول دائما للتجول والاطلاع على معالم المدينة ونصف النهار الثاني لأعمال المهرجان. وقد زرنا معظم معالم هذه العاصمة التي يمتد تاريخها إلى سبعة قرون خلت وهي لا تفتأ تسعى بعد الحرب والدمار الذي لحقها. أن تكون معلما حضاريا معتبرا للثقافة والفنون في بولونيا.

تجولنا في أحيائها القديمة والحديثة، ودخلنا دورها وقصورها، والأحياء التي أعيد بناؤها بعد التدمير النازي لها، وتجولنا في بطحاء سوق (مريانستاد)، والشريان الرئيسي للمدينة (شرق، غرب Z-W) والحي المركزي الجديد وحاراته الرئيسية وقصوره وحدائقه الأنيقة مثل : (لزيانكي)، والحدائق الأخرى الحديثة.

زرنا المتحف الوطني، ومتحف (فريد ريك شوبان)، ومتحف الجيش البولوني، كما زرنا بعض المعامل والمصانع وغير ذلك من الجولات والزيارات الحرة والرسمية. هذا ويستطيع المرء القيام بجولات إلى الضواحي والأربـــاض القريبة والبعيدة بواسطة الحافـــلات المختلفة والتروموايات، مثل

---

(1) بحسن الإطلاع على (حوار وحيرة) في قصيدة : شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب في القسم الثالث من الكتاب.

(ويلانوف) حيث القصر المركزي للملك جون الثالث (يوبياسكي) التاريخي الذي يعود إلى القرن السابع عشر، أو بواسطة البواخر والقوارب النهرية على طول (الفتسول)، وخاصة حديقة الراحة والثقافة التي تشرف على النهر.

قصر الثقافة والعلوم

أما (قصر الثقافة والعلوم) فحدث عنه بكل إعجاب وانبهار بلا حرج، فهو ينتصب شامخا عملاقا في قلب العاصمة، لا يدانيه بنيان في بولونيا أوفي غيرها فيما أقدر، من حيث الاتساع والارتفاع، ومن حيث كبر الحجم، وروعة الهندسة والإتقان في كل شيء تحيط به الساحات المركزية الفسيحة للاحتفالات والتظاهرات الدولية والوطنية. وهو يحتل مع المحطة الرئيسية، وحي البنوك، والأوبرا، وبعض الإدارات المركزية، أهم مكان في وسط المدينة، وهو هدية شعوب الاتحاد السوفييتي البديعة التي تعتبر أجمل وأجمل صورة للهندسة المعمارية الحديثة في بولونيا فشكله وهندسته لا تماثلهما أي بناية في فرصوفيا. وللإلمام بهذا المعلم المعماري الفخم الضخم، يكفي أن أعطي بعض الأرقام (التي قدمت لنا للتعريف به) لتقدير عظمته وفخامته، حيث يتسع لأكثر من ثلاثين ألف شخص، ويعمل به أربعة وثلاثون مصعدا (معراجا). أما ارتفاعه فيصل إلى ثلاثين وثلاثمائة متر من العلو، والحجم الإجمالي لمجموعة قاعات وحجرات طوابقه الخمسين يبلغ ثمانمائة ألف متر مربع.

وفي نطاق القصر ودائرته شاهدنا : قصر الشبيبة والرياضة، وقاعات العرض المسرحي والسينمائي، ومدرجات المحاضرات العلمية والمؤتمرات، وكذا المعارض الفنية التي تختص بحياة الشباب و...و...إلخ.

أمضينا نصف نهار نتجول في أقسامه وأروقته وما أنهيناها. وبأسفل القصر في الطابق السفلي مسبح كبير مضاء بالكهرباء ومكيف الهواء والماء، يصلح للسباحة في فصول السنة كلها. صعدنا في أحد معارج القصر (مصعد كذا نسيت رقمه) إلى الطابق الخمسين! وأشرفنا من عليائه على الساحات

المحيطة بالقصر فإذا الناس فيها ترى لنا كالنمل والهباء لبعد المسافة بيننا وبينهم (وانظر وصف القصر أيضا في القسم الشعري من هذه السوانح).

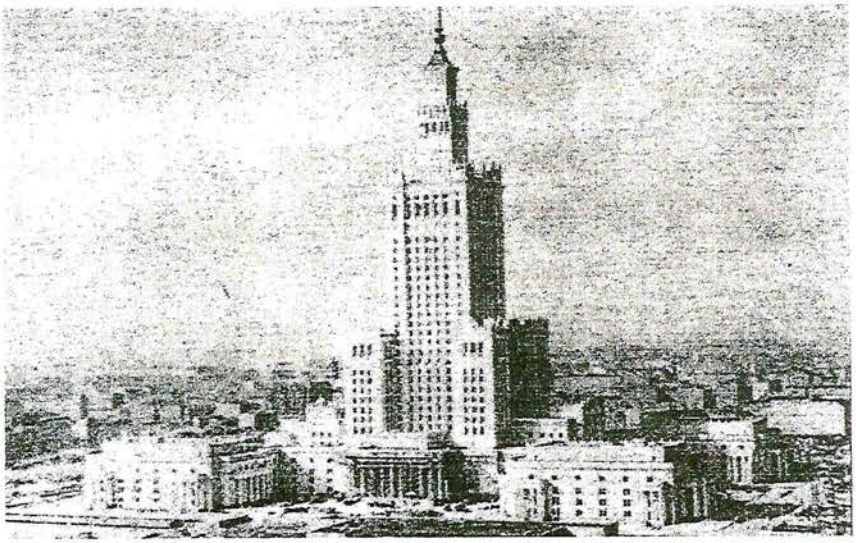

قصر الثقافة والعلوم ..هذا المعلم العمراني العملاق يقف شامخا يتوسط أحياء مدينة فرصـــوفيا سنة 1955

حـــي الـــغيتـــو
Ghetto

اطلعنا في بضعة أيام على معظم أحياء المدينة وأهم معالمها ومصانعها ومؤسساتها الثقافية والاجتماعية، وذات يوم خرج بنا دليلنا إلى ربض من أرباض المدينة وعرج بنا على مخيمات اللاجئين الذين خربت الحرب ديارهم وأملاكهم، ولما تتهيأ لهم المساكن بعد، فهم هنا ينتظرون دورهم في الإسكان، فذكرني منظرهم بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وعاشوا منبوذين بالعراء، ينتظرون صدقات منظمات الغيث الدولية ومقررات جمعية الأمم ومجلس الأمن! ، والفرق هنا كبير بين لاجئين في بلادهم ينتظرون من دولتهم إعداد مساكن لهم، وبين لاجئين في غير بلادهم لا حكومة لهم ولا وطن ينتظرون عطف العالم عليهم وإنصافهم، في عالم أناني لا يرحم، ولا يؤمن إلا بالقوة ولا مكان فيه للضعفاء!! ...

وفي عودتنا إلى المدينة مال بنا دليلنا إلى عراء من الأرض واسع في ناحية من المدينة نصب فيه جدار ضخم عال من الغرانيت عليه تماثيل كبيرة من البرونز تمثل مأساة من مآسي الحرب العالمية الثانية في فرصوفيا، ولوحة

مرمرية من الرخام الأسود عليها كتابة وتاريخ بالبولونية. قال الدليل : "هذا حي الغيتو (Ghetto)[1] من الأحياء القديمة لفرصوفيا، كان خاصا باليهود فلما غزا الألمان المدينة -وموقفهم من اليهود معلوم ومعروف عالميا- طوقوا الحي بالأسلاك الشائكة، وحصروا سكانه فيه، وأضافوا إليهم يهودا آخرين جاءوا بهم من جهات أخرى حشروهم هنا حشر السردين في العلب[2] لا يخرجون منه إلا في ساعات معينة برخص خاصة وتحت رقابة مشددة...

فلما تمرد شباب الحي وحاولوا فك الحصار والخروج من الحبس أُرجِعوا إليه بالقوة، ثم جاءت الأوامر العلية بهدم الحي على من فيه جزاء التمرد والعصيان!! .. كان ذلك يوم 1943/4/19 فقد دمر الألمان الحي بقنابل المدافع من الأرض، وقذائف الطائرات من الجو، فتحطم الحي بما فيه على من فيه!!

وكانت تلك المأساة الفظيعة الشنيعة التي راح ضحيتها أكثر من نصف مليون نسمة من النساء والأطفال والرجال!! وكانت وصمة عار وشنارة للحضارة الغربية في القرن العشرين!! .. وبعد انتهاء الحرب واستقلال بولونيا أقام المسؤولون في الدولة هذا النصب الهائل لمأساة الغيتو، وكتبوا على هذه اللوحة من المرمر الأسود ما كتبوا، كان الألمان هياوها لتسجيل ذكرى انتصارهم على اليهود هنا. فسجل البولونيون فيها تاريخ هذه المجزرة الهتليرية البشعة كما ترون

---

(1) الغيتو كلمة إيطالية تعني الإقامة الجبرية لليهود في مكان خاص بهم، كان ذلك من نحو خمسة قرون خلت في البندقية وفي روما، ثم صار يطلق في أوروبا على الأحياء اليهودية في كل مدينة بها يهود. وكان القانون يعين دائرة هذا الحي الذي يمكن عزله بغلق أبوابه في الليل أو في النهار حسب الظروف. ويحرم القانون مغادرة اليهود له على مساكن أخرى بناء على مرسوم بابوي صدر عام 1555م وحذت العواصم والمدن الأوربية حذو روما والبندقية بعد ذلك في تعيين حي خاص باليهود يجبرون على الإقامة فيه بكل مدينة أو قرية فيها يهود.

(2) كان سكان الحي قبل الحرب يعدون (400) ألف نسمة ثم ألحق بهم الألمان نحو (200) ألف نسمة من يهود الأفاق ثم دمروا عليهم الحي في بضع دقائق، فهذا حمّام الدم من حمامات الدم الهتليرية!! ...

في نزهة بأحد أحياء فرصوفيا، وأمام صورة من صور الخراب والدمار والتنكيل النازي باليهود في الحرب العالمية الثانية، وأمثال هذه الصور كثيرة في كل مكان من المدينـــــــة..

يرى في الصورة من اليسار إلى اليمين: رمضان – الدومـــــــي

أحد الزوار ومعه رفيقته وهالي (حي الغيتو – GHETTO)

وعلى هذا الأساس وبهذه الروح كان (هتلر) زعيم ألمانيا النازية ينوي إذا انتصر في الحرب أن يجمع يهود العالم في جزيرة نائية يجعلها خاصة بهم يعيشون فيها وحدهم معزولين عن العالم تكون أكبر (غيتو) عالمي لليهود للحد من شرهم وجعل كيدهم في نحرهم، فاليهود عندهم بلاء العالم ووباؤه لذلك يجب أن يفصلوا عن العالم! ترى لو تم لهتلر ما أراد كيف يكون العالم وقد تخلص من شر اليهود!! لاشك أنه سيستريح منهم.

هذه الواقعة الفظيعة تمثل وحشية الإنسان وتحجر عواطفه إزاء أخيه الإنسان عندما يطغى أحدهما على الآخر، وتحين له فرصة الظلم والتشفي، أو الانتقام والأخذ بالثأر، عندها تفوق وحشية الإنسان ضراوة الحيوان المفترس.

ولست أدري كيف قفزت بي الذاكرة إلى أول عدوان بشري عرفه التاريخ بين أخوين شقيقين في (قصة هابيل وقابيل)، ثم إلى (قصة أصحاب الأخدود) التي تولى كبيرها زعيم اليهودية في وقته (ذونواس) ملك اليمن الذي شق أخاديد طويلة وعميقة في الأرض ملأها حطبا، ثم أشعل فيها النار، ورمى فيها من لم يدن باليهودية، وكان الطاغية وزبانيته يتلذذون بمشاهدة النار وهي تحرق تلك الأجساد البريئة المؤمنة التي ليس لها ذنب سوى إيمانها بدين جديد جاء به رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام! قال تعالى : ﴿***قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود***﴾ (سورة البروج الآيات : 4، 5، 6، 7).

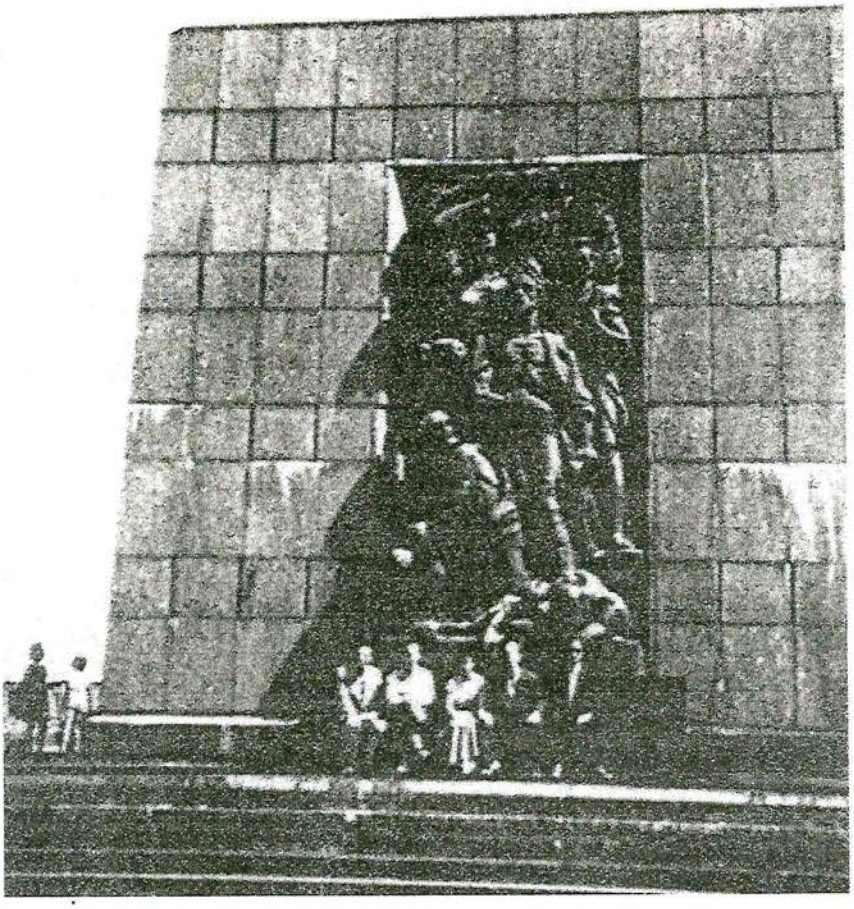

أمام مشهد من مشاهد اليهود المغتربين الثائرين على الوحشية النازية بفرصوفيا.. وقد أقيم هذا النصب على جدار هائل بالحي اليهودي(جيتو- GHETTO) الذي دمره النازيون في الحرب العالمية الثانية 45/39 -وكان هذا الحي يحتوي على نصف مليون يهودي قبل الحرب.. طوقهم الألمان بالأسلاك الكهربائية مدة ثم جاء الأمر بسحقهم جميعا

فهل ما فعله زعيم النازية المسيحي في (قصة الغيتو) هذه وغيرها مع اليهود انتقام مما فعله زعيم اليهودية القديم في قصة أصحاب الأخدود مع المسيحيين..؟! الواقع أن قصص الانتقام والأخذ بالثأر بين أهل هذين الدينين وغيرهم كثيرة لا تحصى في التاريخ وخصوصا تعقب النصارى للمسلمين في إسبانيا، والحروب الصليبية و..و..الخ. نكأت (مجزرة الغيتو) جراحي الدفينة ووخزت سويداء قلبي، وحركت أعمق مشاعري ضد الظلم والظالمين (والشجى يبعث الشجى). فرحت استمطر اللعنات على الهتليريين والستالينيين ومن شاكلهم من كل جنس ودين لا أفرق بين ظالم وظالم ولو كان من أقرب المقربين...

ورغم أن المقضي عليهم هنا يهود –وهم أعداء قومي وملتي– فقد رثيت لحالهم وتألمت لما نالهم فهم هنا مظلومون، وقد يكون يهود بولونيا كيهود ألمانيا، واليهود الغربيون عموما أشد طوائف اليهود عداوة للعرب والمسلمين. ومع ذلك فأنا أفرق جيدا بين يهود ويهود، يهود الشرق ويهود الغرب مثلا، وأعلم أن ليس كل اليهود صهاينة، ولا كل الصهاينة يهودا...

وكان موقفي أمام هذه المأساة إنسانيا بحتا تخطيت فيه الحدود القومية والدينية وتجاوزت كل العداوات والحزازات المتصلة بيننا وبينهم قبل الإسلام وبعده، وما ارتكبه اليهود مع شعوب العالم، وما ارتكبته الشعوب معهم تجاوزت كل ذلك ورحت أفكر في الحقد العنصري الأعمى الذي دفع الألمان إلي ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء والفعلة النكراء، ولم يفرقوا بين كبير وصغير ولا بين امرأة ورجل أو بين سليم وسقيم فدمروا الحي على من فيه، وعجنت

دماء الضحايا وأشلاؤهم بمواد بناء الحي وتربة أراضيه، وكأن هذه المنطقة التي نقف عليها الممزوجة بالدماء والأجساد البشرية هي التي عناها فيلسوف المعرة أبو العلاء بقوله :

خفف الوطء ما أظن أديم (الحـــي) إلا مـــن هذه الأجســـاد

أريد أديم هذا الحي فقط (لا أديم الأرض) كما يريد المعري

حـــمَّامـــات الـــدم

(حمَّامات الدم) أو القتل الجماعي والإبادة الكلية للجماعات البشرية أمور عرفت في نظم الحكم الدكتاتورية الاستبدادية في كل مكان وفي مختلف العصور، وهي إجراءات تعسفية دامية تظهر في مجازر بشرية وإعدامات جماعية لتصفية أفراد وإبادة جماعات مناوئة لتلك النظم الحاكمة، وغالبا ما تقع بلا محاكمات أو بمحاكمات صورية شكلية.

ومن أمثلة ذلك في عصرنا هذا عصر النور والمدنية –كما يقال عنه– عصر الحضارة الأوربية المادية، بما فيه من نظم ديمقراطية وشيوعية واشتراكية وما شاع فيه من ادعاء للأخوة والمساواة وحقوق الإنسان، وما أعلن فيه من حريات، ونحو ذلك من الشعارات والادعاءات، فكل حمَّام منها يفوق كل ما تقدم من مجازر التاريخ التي عرفت في عصور الجاهلية من عهود ثمود وعاد، والفراعنة الشداد، وعهود القياصرة والأكاسرة، فقد تكون مذابحهم لأفراد أو جماعات قليلة محدودة.

أما فضائع ومجازر الاستعمار والإمبريالية اليوم فقد شملت شعوبا وقبائل لا حصر لها ودمرت أوطانا ومدنا بكاملها، لتوفر وسائل الفتك الذريع، والقضاء الشامل الفظيع في عصرنا.

قال أحد البلغاء في وصف الروح الاستعمارية أمام من يقتل من رجالها، وما تفتك به هي من شعوب العالم الملونة :

قَتْلُ امرئ في غابة جريمـــة لا تغـــتفـــر
وقَتْلُ شعب كـــامل مســـألة فيمـــا نظر!!

قلت سأذكر أمثلة من حمَّامات الدم في وقتنا، وقعت في سنوات قليلة متقاربة في ظرف عشر سنوات فقط أسجلها كنماذج من وحشية الإنسان المتحضر المتمدن، وليقس عليها مالم يذكر.

1- حمَّام الدم الألماني : الذي ينسب إلى (هلتر) خلال عام 1943 وقصد به تطهير حزبه النازي من العناصر التي تناوئه وتعارض سياسته التوسعية. فقد ذكرت مصادر الحلفاء أن عدد ضحايا هذه الحركة يتراوح ما بين (300 و 1000) من السياسيين والضباط ورجال الأعمال البارزين.

2- حمام الدم الروسي : الذي ينسب إلى (ستالين) خلال عامي 1936 و 1937 بعد محاكمات صورية عرفت بمحاكمات موسكو، كانت تجري في غرف مظلمة وتنتهي باعتراف المتهمين بالجرائم التي تنسب إليهم، ومنها التآمر على حياة ستالين وعلى نظام حكمه للتخلص منهم.

3- حمام الدم الفرنسي : في الجزائر المعروف بمجازر ماي الدامي (في سطيف وقالمة وخراطة) انتقاما من احتفال شعبنا بانتهاء الحرب العالمية الثانية في الأسبوع الأول من ماي 1945م وراح ضحيتها 45 ألف جزائري برئ في يومين أو ثلاثة باعتراف الفرنسيين أنفسهم، تلتها محاكمات صورية انتهت بالحكم بالإعدام على مائة وطني آخر.

كان من أشهر سفاحي هذه المجازر ومرتكبي جرائمها من الحكام الاستعماريين (لاشياي) و(لستراد كاربونال)، وكانت هذه الحوادث من أهم أسباب ثورة التحرير الجزائرية التي قامت في الأول من نوفمبر 1954.

اكتفى بمجازر (سطيف وقالمة وخراطة) التي تولي كبرها (لاشياي ولستراد كاربونال) من بين حمامات الدم الفرنسية الأخرى لوقوع تلك المجازر في زمن واحد تقريبا مع حمامات استالين وهتلر، وأضرب صفحا عن مجازر وإبادة أو تشريد قبائل بكاملها في الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما وقع في ثورة التحرير الجزائرية من إحراق وتدمير وطن كامل، ومن فتك وإبادة أكثر من عشر سكان البلاد، فشهداؤنا في ثورة التحرير كانوا ثمنا للحرية والاستقلال الذين ننعم بهما الآن فلا نشكو من ذلك رغم فداحة الخطب وفظاعة الحرب! .. وما نزال نكتشف مقابر جماعية للمدنيين من شعبنا من نحو ربع قرن من استقلالنا.

4- وألعن من تلك الحمامات الدموية كلها، ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية في اليابان في الحرب العالمية الثانية، إذ رمت قنبلتها الذرية الأولى على مدينة (هيروشيما) يوم 1945/8/6، فدمرت في لحظات ما مساحته ثلاثة

آلاف فدان في تلك المدينة المنكوبة، وقتلت في بضع ثوان مائة ألف شخص من المدنيين العزل، وأصيب أضعاف ذلك بعاهات وتشوهات وأمراض مختلفة كانت تفتك بكل إنسان وحيوان ونبات.

وبعد يومين فقط من مأساة (هيروشيما) ألقت قنبلتها الثانية على ميناء (ناغاساكي) في اليابان أيضا، فقتلت أربعين ألفا في الوقت، ثم تتابع الموت البطيء، وتعددت التشوهات والعاهات والأمراض المزمنة. أما تدمير المباني والمنشآت فحدث ولا حرج، وهكذا أصبحت هاتان المدينتان أثرًا بعد عين، وسبة خالدة للحضارة الغربية ولعنة مستمرة للولايات المتحدة الأمريكية.

وكما قلد الفرنسيون حمامات الدم الألمانية والروسية في مجازر (سطيف وقالمة وخراطة) وغيرها، كذلك قلدوا أمريكا في تفجير قنابلها الذرية في اليابان بإجراء تجربتهم الذرية الأولى في بعض الأسرى من جيش التحرير الجزائري وبعض مسجوني مناضلي جبهة التحرير الجزائرية عندما فجروا قنبلتهم الذرية في (رقّان) بصحرائنا الشاسعة بدعوى أنها مجرد تجربة نووية في صحراء خالية هنالك في أجساد بشرية حية قالوا إنها تماثيل ومشخصات بشرية لا غير!! ...

كان يمكن أن تكون هذه الفظاعات والشناعات وغيرها مما لم أذكره من وسائل الفتك والقمع الذريع والخراب والدمار الفظيع مقبولة في العصور المظلمة، أما في عصر النور والمدنية فغير معقول ولا مقبول مثل هذه الأعمال!!

القسم الثالث

من وحي الرحلة

مـــن وحـــــي الـــرحـــلـــة

كانت أول رحلة لي إلى الخارج تلك التي عقدتها إلى الأندلس في صيف عام 1954. مع نخبة من قادة الكشافة الإسلامية الجزائرية، لا يتجاوز عددهم الإثني عشر، طفنا فيها عواصم الأندلس وأمهات مدنه، كقرطبة وغرناطة وإشبيليا ومرسية وأليكانت.

كانت حقا رحلة ممتعة من حيث البحث والدراسة وحسن الاطلاع والتنظيم واستغلال الوقت، ولكنها من الجانب الأدبي كانت مقفرة مجدبة بالنسبة إلي وإلى غيري فيما أعلم، فلم أنظم فيها ولا شطر بيت من الشعر، ولم أسجل فيها سطرا من النثر، فقد عقد جلال الذكرى لساني وجمدت روعة الفن بياني، والنظام الصارم للوفد في ربح الوقت واستغلاله، كل ذلك جعلني لا أفكر في الأدب وشؤونه وتبلدت قريحتي من الدهشة التي استولت علي وعلى مشاعري لرؤية تلك القصور الشامخة المنيفة، والمساجد الجليلة المشيدة، والقلاع والحصون الهائلة الضخمة التي بقيت على حالها تقريبا. رغم تقلبات الزمن وتغيرات الأحوال الجوية بعد أن استحال أمثالها مما أنشئ بعدها إلى أطلال دوارس، وقد يعود بعض الفضل في بقائها على حالها تقريبا إلى

مشاريع الصيانة والرعاية التي توليها الحكومة الإسبانية عناية فائقة للحفاظ على روائع تلك الآثار، لأنها تمثل أزهى وأزهر عصر من تاريخها ولأنها تجلب لها السواح الذين يغمرون إسبانية بالعملة الصعبة، ولأن تلك الآثار جعلتها من أشهر البلدان السياحية في العالم، وبذلك صارت الموارد السياحية فيها من أهم الموارد الاقتصادية.

كنت أذهب إلى قصر الحمراء بغرناطة أو إلى الجامع الأعظم بقرطبة وأمكث الساعات الطوال حالما هائما في ماضيها السحيق الزاهر، متنقلا بين أعمدة وجدران جوامد، وبرك وتماثيل رواكد، ولكنها عوالم حية تزخر بالذكريات العذاب، وتفيض بمآسي العذاب، ولا أكاد أفيق إلا على صوت الجرس المؤذن بالانصراف، وكذلك الشأن في قصور إشبيليا ومرسية، وأطلال الزهراء والزاهرة، وفي جنة العريف، وغيرها من الحدائق والساحات والأماكن التي لا تخلو من بعض التحريف والتزييف، الذي أدخلته عليها يد العصر بقصد التحسين والتحصين.

وقد أَتعبتُ جماعة الوفد بِوَقَفاتي الطويلة في تلك الأماكن وعطلت بعض مخططاتهم، فقد كنت أفلت أحيانا من بعض برامجهم لأجل تلك الآثار. فهذه الأماكن الجميلة الجليلة –حيث لكل شبر منها قصة أو قصص رائعة، ولكل قدم فيها تاريخ حافل بالحوادث والأحداث السارة والضارة، توحي للشاعر المتأمل بأرق الشعر وأدق الشعور، ولكني للأسف –كما أسلفت– لم أقل فيها شيئا من الشعر لانبهاري واندهاشي لجمالها وجلالها. فكانت هذه الرحلة بالنسبة لي ميتة من هذا الجانب، ولكن ذكراها بقيت وستبقى حية ماثلة في

ذهني وذاكرتي بقاء تلك القصور والمساجد وإن طال الزمن. ولعل من أسباب ذلك أيضا أنه لم يكن معنا أديب في ذلك الوفد يجاذبني وأجاذبه أطراف الأدب وطرائفه.

أما رحلة بولونيا هذه التي جاءت بعدها بعام واحد (صيف سنة 1955) فقد كانت على النقيض منها تماما في كل شيء، فقد نظمت فيها أكثر من ثلاثمائة بيت، سأثبت منها هنا قصيدتين طويلتين من بحر واحد وروي واحد، سلمتا من أيدي زبانية التفتيش الفرنسي والمراقبة العسكرية الصارمة أيام حرب التحرير الجزائرية، إحداهما بعنوان "**فرصوفيا المحطة**" والأخرى بعنوان "**شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب والطلاب في وارسو**"، أما القطع الصغيرة الأخرى فقد ضاعت مني للأسف الشديد، وهي منوعة الأغراض مختلفة الأنغام والقوافي.

أقول كانت هذه الرحلة على عكس الأولى في كل شيء، فبينما الأولى في أقصى الجنوب الغربي لقارة أوربا، إذا بالثانية في الشمال الشرقي لها، فتباعد الأماكن وتباين أجناس السكان كان عظيما بين إسبانيا وبولونيا، وكذلك الشأن في المناخ وطبيعة الأرض، وفي نوع الفلاحة والعمارة، وفي العوائد والأخلاق وفي كل شيء، وبينما نظام الحكم في إسبانيا رأسمالي عسكري (عهد الجنرال فرنكو)، إذ هو في بولونيا اشتراكي شعبي، وبينما الأمة الإسبانية تجاورنا وتاريخ حضارتها ومدينتها وآثارها وأمجادها وحتى الكثير من سلالة أبنائها، تربطنا بكل ذلك أوثق الروابط وأقوى الوشائج، إذ بنا لا نكاد نجد أي

صلة من ذلك تصلنا بالأمة السلافية البولونية، التي تبعد عنا بعدا سحيقا في كل شيء إلا في بعض المعاني الإنسانية.

وبينما مظاهر الحياة كانت في الأولى هادئة وادعة، إذ بنا نجدها في الثانية صاخبة دائبة لا تفتر بالليل ولا بالنهار، فمشاريع البناء قائمة مستمرة على مدى 24 ساعة في كل مكان، يتناوب عليها أفواج الليل والنهار. وبينما كان عدد أفراد وفدنا إلى إسبانيا لا يتجاوز العدد المذكور آنفا إذ بنا نجد أنفسنا في الطريق إلى بولونيا وسط قافلة كبيرة طويلة تبلغ الثلاثمائة من أبناء المغرب العربي وحده ثلثاهم من الجزائريين، ثم إن هذا العدد الضخم في رأيي لا يكاد يظهر له وجود في (فرصوفيا) بين ذلك البحر الزاخر من شباب العالم الذي أم (المهرجان العالمي للشباب والطلاب الخامس) Le 5ème festival de la jeunesse et des étudiants الذين جاءوا من كل حدب وصوب من أمريكا وأستراليا وجميع القارات حتى المناطق القطبية فقد كانوا يعدون بمئات الألوف.

إذا أضفنا إلى هذا العدد الهائل الأمة البولونية التي استقبلتنا أحسن استقبال بشيبها وشبابها من جميع أطراف بولونيا، وامتزجت بنا كل الامتزاج، وبالغت في الحفاوة والإكرام، لتظهر لضيوفها ما تكنه لهم من حب وابتهاج، تخيل الإنسان أنه في يوم القيامة، وهذا هو البعث والحشر والنشر.

فكيف يتسنى لمن يحب الهدوء والسكينة مثلي ويجنح للانفراد والعزلة أن يقول أو يكتب في مهرجان الهرج والمرج ؟ الذي يشبه يوم الحساب، يرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنهم حيارى من كثرتهم واختلاف ألسنتهم

وألوانهم، وتباين طباعهم وسلوكهم. لكن وعلى الرغم من ذلك كله كانت قريحتي أخصب منها في أي يوم، وكانت شاعريتي أكثر إنتاجا منها في أي وقت، وقد يكون من أسباب ذلك وجود شاعر معي في هذه الرحلة لا يفارقني ولا أفارقه من يوم سافرنا 55/07/24 إلى أن عدنا في 55/08/18، وكان يساجلني وأساجله ويجيزني وأجيزه، فكان هذا الحافز في التباري الأدبي مع هذا الشيخ الأديب، والشاعر "الفكه الأريب" مما دعاني لمجاراته ودفعني لمباراته، وهو الأمر الذي لم يتيسر لي في الرحلة الأولى، ولو أمكن تسجيل كل الذي دار بيننا لكان تحفة أدبية رائعة، متنوعة، ولكن واحسرتاه!

وقد يكون مبعث الشعر أيضا في هذه الرحلة سببا عاطفيا صرفا، لم يسبق لي أن رأيت مثله فيَ حياتي، فحيثما اتجهت وجدت آثار الحرب صارخة مثيرة في هذه المدينة المنكوبة، تشعرني بفداحة الخطب وفضاعة الحرب، وتفكرني بويلات الحرب العالمية الثانية وبشاعتها وكيف راحت ألوف الألوف من النفوس البريئة (من غير المتقاتلين) طعمة لنيرانها، وكيف قضت على ما أشاد الإنسان، من معالم الحضارة والمدينة والعمران.

وتذكرني في نفس الوقت بالثورة العارمة التي اندلعت من بضعة شهور في بلادي ضد الاستعمار الفرنسي الطاغي المتعجرف، الذي يريد أن يقمعها بكل عنف وضراوة ووحشية، وهو يملك من وسائل الدمار والفتك مالا يملكه الشعب الأعزل الثائر.

فإن الإنسان لا يملك مع هذه المناظر المثيرة، والخواطر والأحاسيس الجياشة زماما لنفسه وعواطفه أن تتحرك أو تثور ضد الظلم والطغيان من أي

كان وحيثما كان، وكذلك مظاهر الفرح والبهجة والسرور الطاغية التي يتبادلها شباب العالم من كل جنس ومن كل دين، في هذا المهرجان الصاخب المنعقد تحت شعار (المودة والسلام)، لأن (الإخاء والسلم) كانا مما تتطلبه الحياة البشرية بعد الحرب العالمية، فأسرفوا في ذلك وبالغوا في إظهار (الاخوة والمودة والسلام)، كأنما هم بذلك يكفرون عما صنع آباؤهم وإخوانهم في الحرب الماضية القاضية على ما أشادته الحضارة الغربية في مدى ربع قرن (بعد الحرب العالمية الأولى) أو كأنما هم بذلك يحتجون على دعاة الحرب وتجار الأسلحة.

هكذا كنت بين هذه العوامل المتناقضة المختلفة من الفرح والحزن والبهجة والأسى والخراب والتشييد إلخ، فبينما نكون في احتفال بهيج أمام مختلف العروض الفنية والرياضية، من مختلف مباريات الألعاب وشتى فنون الرقص والموسيقى، أو نكون في نزهة على قوارب نهر (الفستول) وزوارقه، أو في بعض الحافلات إلى مختلف الجهات والمتنزهات، أو في زورة إلى المنشآت والمؤسسات الثقافية والاجتماعية وغير ذلك من المعارض والمصانع ونحوها، مغمورين بنشوة الفرح والسرور والغبطة لنهوض هذا الشعب من كبوته ومن دمار الحرب وآفاتها، إذ ننتقل إلى مثل حي "الغيتو" Ghuetto أو غيره من خرائب الحرب وأطلالها الباقية الماثلة للعيان في كل مكان من هذه العاصمة بالخصوص، أو إلى مخيمات اللاجئين ومعسكرات المنكوبين الذين ما يزالون بدون مأوى أو عمل من نحو عشر سنين من انتهاء الحرب المشؤومة، فتغمرنا موجة أخرى مخالفة من الكآبة والحزن والانقباض لبشاعة الحرب ومصائبها التي لا تقدر، وما راء كمن سمع.

وهذه الأحاسيس المتباينة الحساسيات المرهفة تتمثل فينا نحن –أبناء المستعمرات– بالخصوص الذين جاءوا من مواطن الكبت والحرمان والتخلف، وأراضي الظلم والقهر والعدوان، كأنهم كانوا في سجن كبير بلا جدران خلف أسلاك شائكة مكهربة وملغمة يحرسها الرادار وعيون لا تنام، لا يستطيع اجتيازها إنس ولا جان، لا ذنب لهم إلا أنهم أبوا الضيم وأرادوا الحرية والكرامة كالآخرين، فثاروا مغامرين بحياتهم طالبين الحياة أو الموت.

وفيما يلي نص القصيدتين البولونيتين المشار إليهما سابقا، وفيهما تتجلى (سوانحي وارتساماتي) في ذلك الوقت، وهي خواطر وانطباعات صادقة مطابقة وموافقة لما كنت رأيته أو تصورته وأحسست به في ذلك الحين.

فرصـــوفيا المحطـــمة

بولونيا والحرب

(بولونيا) مجلى الجمال وكم غدت ... مهد الصنائع، منبع العرفـــان
كـــانت إلـــى عهد قريب مسرحـــا ... لتطاحن الطغيـــان والعـــدوان[1]
قد شوهتها الحرب حتى لا تـــرى ... مـــن حسنهـــا إلا الدميـــم الفاني
كـــم راحت الأكواخ مثل قصورها ... نعم الطعـــام لنهـــــــمة النيران
أنـــى ارتحلت فلا ترى إلا الـــدمار ... مجســـــما في ســـائـــر البلـــدان
أمست بـــلاقع أمهـــات بلادهـــا ... فكأنهـــا لم تَغْـــــنَ في الأزمـــان
(فرصـــوفيا) أم المـــدائن لم تعـــد ... إحدى العجائب في دُنَا العمران[2]
يـــا ويلهـــا من دولـــة مســـــكينة ... قد حطمـــتها غـــارة الـــطغيـــان
مـــا استسلمت حتـــى أبيد كيانهـــا ... بـــقنابل الألمـــان والحمـــران[3]

---

(1) العدوان الألماني والطغيان الروسي اللذان التقيا عليها كرا وفرا.
(2) فرصوفيا هي (وارسو) :عاصمة بولندة أو بولونيا.
(3) بلغ تدمير فرصوفيا في الحرب العالمية الثانية نسبة 90 بالمائة.

الظُّلاَّم الآثمون

لا دَرْدَرُ الظـالمين فـإنهـم ... قـوم بـلا عطـف ولا وجـدان
يـا ويلهم لم يتركوا من مـاثـل ... يبقـى على الأيـام كـالعنـوان
إلا الشقـا والموت يخطـو إثره ... يترصد الضعفـاء في الميـدان
وَيـلُمِّهم لا يـأبهـون لـكائـن ... حـي مـن الإنسـان والحيـوان
زرعوا الشقاوة والفناء ومـا دروا ... أن الحصيد عـداوة الإنـسـان

العهد الجديد[1]

أخت (الجزائر) في العذاب وفي العنا ... يهنيك هذا النصر في الأوطان
مرحَـى لكِ العهدُ الجديد فقد بـدا ... لـلشعب فيـه أيـمـا سلطـان
الحكم شـورى والتـعاون بَيِّـنٌ ... بَينَ الفقير وصاحب الأطيـان
يَهنيـكِ هـذا العهد فانتفعي به ... لترممي ما انهدَّ مـن بنيـان
وتضمـدي تلك الجـراح فطالمـا ... نَزِفَتْ قلـوب بالنجيـع القـاني
ثم ارجعي نحو الفـلاحة وازرعي ... مـن كـل مـا يغنيك بالأطـنـان
ولَتَبعثـي دُور الصنـاعة إنـهـا ... أس البقـا ودعـامـة الـعمـران

فرصوفيا والفستفال

(فرصوفيا) يا (وَرْشَوَا) يـا موئلا ... (للفتسفـال) الخـامس الفينـان[2]

---

(1) العهد الجديد هو الحكم الجمهوري الشعبي الذي قام سنة 1945 أنظر في الأخير (التعريف ببولونيا).
(2) ورشوا warsava الاسم البولوني لوارسو أو فرصوفيا عاصمة بولندة

جعلوا شعار المهرجان : (سلامة وأخوة) في عالم عدواني
جِئناكِ تحدونا (المودة والإخاء) مثل الحجيج تطوف بالأركان
نطوي الممالك والبحار بلا وَنًى مستعجلين بلوغنا اللاَّن[1]
لنرى (الأخوة والمساواة) التي منها حرمنا في حمى الأوطان
حتى بلغنا رَبعكِ الخصب الذي مرت عليه الحرب كالطوفان
وأتت على ما كان من مدنية وحضارة ومعالم العمران
فاستأصلته فلا ترى من قائم إلا هوى واندك دون توان

قرطاج عصر النور

(فرصوفيا) أم المدائن أصبحت (قرطاج) عصر النور والعرفان[2]
دُكَّتْ معالمها فغاض جمالها وجلالها قد لُفَ في أكفان
أضحت دوارس ناطحات سحابها وقصورها ومكاتب الديوان[3]
إن المقاهي والملاهي أصبحت بعد الخراب مواطن الغربان
وكذا المعاهد والمعابد كلها باتت مآوي البوم والجرذان
إن الدم المسفوك في ساحاتها مثل الدم المهراق في أوطاني
واليتم طاعون البنوة شائع كالثكل والتيئيم في النسوان[4]

---

(1) اللان : الجنس البولوني القديم أو بعض أجناسه.
(2) قرطاج أو قرطاجنة : أقدم مدينة أثرية في تونس، كانت عاصمة في العهد الفينيقي بالمغرب وإليها ينسب العصر القرطاجي، خربها الرومان وأعملوا فيها المحراث حتى لا يبقى فيها حجر على حجر. فصارت تضرب بها الأمثال في الخراب والدمار، ولذلك جاز تشبيه دمار فرصوفيا بها.
(3) مكاتب الديوان : هي الإدارات الحكومية وما يزال هذا اللفظ العربي يستعمل عند الأوربيين في بعض الأجهزة والإدارات مثل كلمة Douane عند الفرنسيين (لنظام الجمارك) بشيء من التحريف.
(4) التيئيم : مصدر تأيمت المرأة أو الرجل أي أصبحا بلا زواج

أمـــا الشيوخ المعدمون فـــلا تسل عـــن بؤسهم ويح الضعيف الواني
هذي المـــآسي وحدت مـــا بيننـــا حتى غـــدونا كـــالقريب الـــدانـــي

قصر الثقافة والعلوم

عَجباً ومما يلفت الأنـــــظار في (فرصوفيا) بعد النهوض الثـــاني[1]
(قصر الثقافة والعلوم) وماحوى من باهر الآيات في العمـــران
صرح بـــديع مَردَته أبالِـــسٌ من روسيا فاقت ملـــوك الجان
قصر عظيـــم كالمنارة شامـــخ وسط المدينة مُهتَدَى الحيـــران
من أي صقع من جوانب(ورشوا) تلفيـــه أعظم مـــا أقام البانـــــي
مثل الخطيب على منصة منـــبر بين الـــجموع يفيض في تبـــيان

لسان حال القصر

سنقيـــم من شعـــب تمزق شملـــه فـــي الحرب أقـــوى أمـــة لـــــلآن
ونشيد مـــن وطن تحطم عرشه مجـــدًا أثيـــلا راســـخ الأركـــــان
ونَضُمُ من أوصـــاله خير القُـــوىَ ومن الخـــرائب أجمـــل البلـــدان
ونقيم من أم الـــمدائن "وَرْشـــوَا" مـــالم يكن في ســـالف الأزمـــان
ومتـــى أراد الشعب شيـــئـــا نالـــه حتـــى المحـــال يصير في الإمكان

---

(1) النهوض الثاني : هو المشار إليه سلفا بالعهد الجديد، وهو نظام الحكم الجمهوري الشعبي الذي قام سنة 1945.

ساحاته وأقسامه

رحبت بطـــاح حـــوله وأجـــلُّها بطحـــا عظيم الروس في الإبان[1]
طفـــنا به أقســـــامه فأهمنـــــي منهـــا الـــكثير ومسرح ذو شـــأن
ما إن رأيت ولا سمعت بـــمثله فـــي وضعه أو روعة البنيـــــان
تُصغِي إلى همس الممثل واضحا وتُحِسُّ أنفـــاس الضعيف الفـــاني
وتكـــاد من بُعد المســـافة لا ترى أشخـــاصهم إلا دُمـــى صبيـــان
هـــذا إلى تكيـــيف جو فضـــائـــه وإلى مـــرافق دونها عرفـــانـــــي

معارجه وطوابقه

ولقد صعدنا في المـــعارج مـــرة خمســـــين طـــابقا لحظـــة من آن
حتى بلغنا ســـطحه فـــإذا بـــه فوق السحـــاب يتيه كـــالنشـــوان
والناس من عليـــائه مـــثل الهبا في ســـاحه وأدق فـــي الحســـبـــان
هيهات منه (الإيليزُّي) ضخـــامة وقصر (باكنغام) في الأفـــدان[2]
يَهنيك (وارسو) القصرَ فانتفعي به وتمتعي مـــا شئت بالإيـــــــوان
(قصـــر الثقافـــة والعلوم) هدية من (روسيا) لك آية العرفـــــان
تهـــديه برهان المـــودة والإخـــا عـــونا كريمـــا للكريم العانـــــي
فتقبلي منها الهدية واصـــــفحي عمـــا جرى في الحرب من خسران
قالوا : الهدية حسب مُهديها، فقلت وحسب مـــن تُهدَى لـــه في الشان
لـــولا مكانتك الرفيعة عنـــــدها مـــا كان هـــذا القصر في البنيـــان

---

(1) بطحاء عظيم الروس : هي (بطحاء أو ساحة استالين) أكبر ميدان هنالك للاستعراضات والاحتفالات التي تقام قرب هذا القصر.

(2) الإيليزي : قصر رئيس الجمهورية الفرنسية في باريس، وباكنغام : قصر ملوك بريطانيا العظمى في لندن، والأفدان : القصور

حي الغيتو Ghetto

ولئن نسيتُ فلست أنسى مشهدا ... في حي (غيتو) عبرة الأزمان[1]
حي بكامله يغص بأهله ... يُقضَى عليه برمشة الأجفان
نصف من المليون يقضى نحبه ... في لحظة بقنابل الألمان
يا للفضاعة والشناعة والعمى ... والبغي يا لحماقة الجرمان
لا تمش ويحك هاهنا فأديم هذا ... الحي من أشلا بني الإنسان[2]

اليهود والنازيون

قالوا : (اليهود بلاؤنا في أرضنا ... وخميرة الإفساد في الأوطان
ومن الصلاح – بلا جدال – قطع ... دابرهم بلا رفق ولا تحنان)
قلنا : (نعم وهل الذين تعمدوا ... قتل المسيح أحق بالغفران؟[3]
أما الذين تعمدوا بمياهه ... وتمسحوا بمعابد الرهبان
وتعمدوا قتل الألوف فصلّبهم ... أولى على الأخشاب والجدران
إن اليهود – وإن تفاقم شرهم – ... ليسوا بأسوأ من بني الألمان

---

(1) حي الغيتو Guetto هو الحي الإسرائيلي في فرصوفيا، وقد حشد فيه الألمان اليهود وطوقوه عليهم بالأسلاك الشائكة وغيرها وقت احتلال المدينة ومنعوهم من الخروج منه، فلما تمرد شبابه وهموا بالخروج عنوة جاءت الأوامر بتدمير الحي على من فيه!!..وكانت تلك المأساة الفضيعة التي لا تقل بشاعة عن مآسي القنابل الذرية التي رمتها أمريكا على اليابان، فهذه أمثلة من حضارة الغرب ومدينته وكان عدد سكان الحي نصف مليون نسمة.

(2) البيت مقتبس من قول المعري المعروف : **خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد**

(3) هذه مجرد مجاراة لهم في اعتقادهم لإقامة الحجة عليهم بما يلي من سوء تصرفهم فنحن نؤمن بأنهم (ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)

إن الصهـــاينة الطغـــاة بشـــرقنـــا ليســـوا ســـوى ألمان أو نرمان[1]
أمـــا اليهـــود الشرقيـــون فـــإنهم حمـــلان بين صهـــاينَ الجرمـــان

التوحش الأوربي

إني -وإن شنعت بالألـــمان لا في بـــني التـــاميـــز واللاَّتـــان[2]
جرمـــان أو سكســـون أو إفرنج أو طليـــان أو أسبـــان كـــالرومـــان
إن الـــتوحش دأبهم فـــي حكمهـــم لا فـــرق بين قصيهـــم والـــداني[3]
فالغربيون على اختـــلاف أصولهم أضرى الوحوش على بني الإنسان

بين الأطلال والخرائب

بينا نسير علـــى الخرائب خُشَّعـــا متأملـيـــن عواقـــب الـــطغيـــان
إذ خلقتْ فوق الرؤوس حـــمامـــة رمز الســـلام وأخت كل أمـــان
مخضـــوبة القدمين تحسب أنهـــا كـــانت تسير على النجيع القـــاني
حـــامت على الأقوام حيناً وانتحتْ منهم مكانـــا غير ذي عمـــران
وقعت على سور تـــداعى ركـــنه لـــم يبق غير الســـور مـــن بنيـــان
نـــاحت على الأنقـــاض تندب إلفها وكأنهـــا ثكلـــىَ مـــن النســـوان
تبكـــي بصوت مبرح مـــا خِلْتُـــه إلا أنين الثكـــل فـــي الأحـــزان

---

(1) النرمان les Normands هم سكان الشمال الأوروبي الغزاة الجفاة الذين عرفوا بشدتهم وقساوتهم في التاريخ الأوروبي.

(2) بنو التاميز : هم الإنكليز نسبة إلى نهر التاميز الذي يمر بعاصمتهم لندن، ويعرفون أيضا بالسكسون كما سيأتي ذكرهم في الحين، أما اللاّتان فهم سكان جنوب أوربا الذين يشرفون على البحر الأبيض المتوسط : أسبان فرنسيون (إفرنج) يونان، طليان، وانتقلت طوائف منهم إلى أمريكا الجنوبية وخاصة الإسبان والبرتغاليون، فصارت تعرف بأمريكا اللاتينية، وبها الآن أكثر من عشر دول منهم.

(3) (قصيهم) هم الأمريكان والشماليون، (والداني) هم الأوربيون الغربيون.

الأسى يبعث الأسى

رباه هذا النوح يجرح خاطري ... ويثير فيه لـواعج الأشـجـان
وأنين قومي ما يـزال مرددا ... في مسمعي كالجرس في الآذان
صدري يضيق بما يُكِنُ وليته ... أَلقَى به أو راح في نسيـان
ولطالما اهتاجتْ دوافن غيـضه ... وكتمتها فبقيتُ في غليـان
ولكم تساءل رفقتي ما بالـه ... كالتـائه الولهان في الوديـان؟[1]
إني ليؤلمني التـذكر كلمـا ... ألفيت نفسي في حمـى وأمـان
والقوم خلفي في جـحيم عارم ... يتقلبون على لظـى العـدوان
ويلي على قومي الذين تركتهم ... غرض العدا في فورة الطغيـان
وأنا السليم وأمتي في أرضـها ... تصلى عذاب الهون في ألـوان
لا كـان هذا السلم مـادام العـدا ... في غيهم والقـوم في طوفـان

---

(1) هديل الحمام وسجعه يثير أشجان الشعراء والمرهفي الإحساس فيتنفسون وينفثون من جوى أحزانهم وهمومهم ما كان خاملا نائما من فقد عزيز أو فراقه وغربته ونحو ذلك فيجيدون ويبدعون.
قال من ذكره سجع الحمام بفلذات كبده في غربته :

وأرقـني بـالري نـوح حمـامة ... فنحت وذو الشجو الحزين ينـوح
ونـاحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفـراخي مهامه فيـح

وأنشد الرياشي قال :

ألا قـاتل الله الحمـامة غـدوة ... على الأيك ماذا هيجت حين غنت
تغـنت عنـاءا أعجميـا فهيجت ... جواي الـذي كانت ضلوعي أكنت

وقال آخر في مثل ذلك :

دعت فوق أفنان من الأيك موهنا ... مطوقـة ورقاء فـي إثـر آلـف
فهاجت عقابيل الهوى إذ ترنمت ... وشبت ضرام الشوق تحت الشراسف
بكت يجفون دمعها غير ذارف ... وأغرت جفونـي بالدموع الذوارف

الحرب الاستعمارية في الجزائر

المدفع الرشاش يمطر أهلنا ... برصاصه كالسوابل الهتان
والهاون الفتاك يقذف دورنا ... من جامه بصواعق النيران
والجيش يرتكب الفظائع كلها ... والتنكُ يهدم قائم البنيان
والطائرات تدك من أكواخنا ... ما لم تصله بجيشها العدواني
لهفي على الصبيان مات أبوهم ... وأخوهم لهفي على الصبيان
ويلي على الحرمات غاب حماتها ... ويلي على الأطفال والنسوان

عاقبة الظلم والعدوان

لا دَرْدَرُ الظالمين فإنهم ... قوم بلا قلب ولا وجدان
يا ويلهم لم يتركوا من ماثل ... يبقى على الأيام كالعنوان
إلا الشقا والموت يخطو إثره ... يترصد الضعفاء في الميدان
وَيلُمِّهِمْ لا يأبهون لكائن ... حي من الإنسان والحيوان
زرعوا الشقاوة والفناء وما دروا ... أن الحصيد عداوة الإنسان

جهاز خاص يستعمل لأول مرة

(بعثت بفحوى هذه الكلمة لرفيقي في الرحلة الشاعر الأديب "الحفناوي هالي" كمقدمة وتمهيد للقصيدة التي تليها، وذلك بعد رجوعنا من الرحلة بأيام).

أَوْجَدَ العلم أجهزة كثيرة مختلفة لضبط أو تشخيص أو تسجيل الأصوات والألوان والحركات وغير ذلك، كالتغيرات الجوية والظواهر الطبيعية، وكثير من الأمراض المستعصية والعوارض البشرية، وترقى في ذلك وتفنن فيها وفي

غيرها مما لا يحصى، من ميكرو إلى ميكروفون، ومن ترمومتر إلى بارومتر، ومن تليفون وتليفزيون إلى راديو ورادار، وغير ذلك مما يكشف به العوالم الخفية، والأسرار الكونية، أو يرينا به من عجائب المخلوقات ببديع المصنوعات، ما يُرَفِّهُ به علينا أو ييسر لنا أسباب الحياة.

ولكني لا أعلم أنه صنع أجهزة لتسجيل النوازع النفسية والتأثرات والميول العاطفية، وغيرها من الخواطر والأفكار، والطموحات والأطماع، والشكوك والمخاوف، ونحو ذلك من الحالات والانفعالات البشرية التي يزخر بها هذا العالم الإنساني المحجوب عن الأنظار.

أما أنا فقد وضعت جهازًا لكل ذلك، وجربته خاصة ولأول مرة مع أحد رفقائي في الرحلة إلى ما وراء الستار الحديدي بين الشرق والغرب في أوروبا الشرقية. صديقي الأستاذ الشيخ الحفناوي هالي سجلت له فيه ما لم يسجله عليه ملكاه، مما لم تنطق به شفتاه، أو تتحرك له قدماه، أو يعرفه فيه أحد من البشر، من خلجات نفسه، أو تمنيات قلبه وانطباعات ذهنه، بعد جولة ممتعة قمنا بها ذات مساء من يوم العطلة الأسبوعية في فرصوفيا على ضفات نهر (الفستول) وبين الخمائل والجداول، وسط مواكب الحور والولدان من سائر البلدان، وقد جاءت لتحضر مهرجان الشباب والطلاب العالمي بفرصوفيا في صيف سنة 1955

ففي ذلك المساء عندما أرخى الليل سدوله، وأخلد الشاعر الأديب للراحة واستسلم للنوم بدأ يحلم ويستعرض ما مر عليه في تلك العشية، ركبت له الجهاز ليسجل ما يدور بخلده، ويهفو له قلبه وتتطلع له نفسه من أمان عذاب، فجاء هذا التسجيل الهائل الكامل لما كان يحلم به وتستعرضه مخيلته

منْ مشاهد ورؤى، مصحوبة بمختلف الأحاسيس وشتى الهواجس والوساس، مما جبل عليه حسه المرهف وطبعه الحساس، فنجحت المحاولة وسجل الجهاز تقدما باهرا في دراسة هذا الجانب الخفي من نفسية شاعرنا الأديب، وتصوير مشاعره وتخيلاته، وأحسب أنه جس أنفاسه وسبر أغوار نفسه، وقاس درجة حرارته، ووَزَنَ تقديراته للأمور، واختبر طاقاته على تحقيق ما يحب كما صوَّر تخيلاته وأحلامه بأمانة وإخلاص.

وها أنا الآن أُسَلِّم هذه الصورة الحية الناطقة لذلك التسجيل النادر في شريط واف لقصة أدبية ممتعة، أقدمه هدية ودية وذكرى طيبة عطرة لصاحبه الناطق باسمه، ليرى فيه نفسه وخياله في ذلك الحين، مثل ما يبصر المرء نفسه على شاشة السينما أو زجاجة التلفزيون، بعد ما يكون قد شارك في أدوار الفيلم، فيعجبه منها ما يعجبه وقد لا يروق له القيام ببعض تلك الأدوار، فيتأسف ويتأفف ولات ساعة تأسف وتأفف.

فليعذرني صديقي ورفيقي في الرحلة إذا لم تعجبه بعض المناظر والحالات في الفيلم، فليس لي فيها دخل ولا في الجهاز أي عيب، إنما هي مناظر وحالات مرت على الجهاز فسجلها، كما أنه لا ذنب لشاشة السينما أو لوحة التليفزيون مادامتا تعرضان مناظر الأدوار والمشاهد كما مرت عليهما، وسلام عليه وعلى تلك الأيام في الغابرين، ووقانا الله وإياه شر العذال والحاسدين.

حرر بالقبة من عاصمة الجزائر يوم 1955/09/15

رفيقك في الرحلة

محمد الصالح رمضان

القسم الرابع

شيخ من صحراء الجزائر
في مهرجان الشباب (شعر)

شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب بوارسو سنة 1955

شيخ يتصابى وآخر يتزمت

وعَشِيَّةٍ في (وَرْشَوَا) أمسيتها ... من أمتع الساعات في أزماني[1]
نشوان منتعش الفؤاد كأنني ... في جنة الفردوس كالولدان
أمسيت فيها يافعا متحررا ... من كل قيد حز في وجداني
ناديت أحلام الشباب فأقبلت ... جذلانة تسعى إلى جذلان
وبصحبتي خل كريم خلته ... من أظرف الرفقاء والخلان
وإذا به متحفظ متورع ... كالشيخ يالفداحة الخسران
لا غرو أن يتزمت المرء الذي ... أمضى الحياة معلم الصبيان
أما أنا فبهمة الشبان أحيا ... دائما وبحكمة الشيبان
أعطي لنفسي حضها وعواطفي ... والروح والأدب الرفيع الشأن
وأمتع القلب الكريم بما يحب ... ويشتهي والعقل بالعرفان

---

(1) ورشوا Warsawa، الاسم البولوني لفرصوفيا Warsovie ويسميها الإنكليز وارسو Warso وهي عاصمة (بولونيا).

الحب وأثــره

أمسية ما إن رأيت كمثلـــها فيما مضى من ســالف الأزمــان
ذقت الهوى فيها فأنعش مهجتي وسقى فــؤاد المِهْيَف العطشان[1]
وشربت مــن ماء الحياة فأينعت أوراق حبــي الذابل الأغصــان
وتفتحت أزهــاره في حــينها وذكت روائــح عطرها للدانــي
الحب إكسير الحياة ومن يعش بسوى المحبة عاش في حرمــان
فلقد يَرَدُّ إلى الشيوخ شــبابهم وإلى الجبان بطولة الشجعــان
ينساب في جسم العليل فينتشي ويصير والرجل السليم سيــان[2]
الحب روح الله في إنسانــه الحب للإنــسان عمــر ثــاني
كالماء أعذب ما يكون وكم له في عــالم الأحيــاء مــن برهان
فالماء يُحيى الأرض بعد مــماتها والحب يحيى الروح في الإنســان

مهرجان فرصوفيا

(فرصوفيا) يا موطنا (للفستفال) ومهرجــان الحــور والولدان[3]
جئناك تحدونا : (المودة والإخاء) مــثل الحجيج تطوف بالأركــان
نطوي الممالك والبحار بلا ونى مستعجليــن بلــوغنــا للآنِ[4]

---

(1) المهيف والمهياف : السريع العطش

(2) سيان : مثلان يجوز فيه التخفيف والتضعيف مفرده سي. ومنه سيما (والميم زائدة) قال ابن سيدة: وهما سيان وسواءان أي مثلان والواحد سي.

(3) فرصوفيا هي وارسو أو وارشوا عاصمة بولونيا والفستفال (Festival) : كلمة أوربية تكاد تكون عالمية عربيتها المهرجان ولعله مشتق من الهرج لأنه لا يخلو منه.

(4) اللان : جنس من الأجناس القديمة التي سكنت أرض البولان (بولونيا).

لنرى (الأخوة والمساواة) التي منهـا حرمنا في حمى الأوطان
بعثت إليك بغيدها وشبابها بلدان هي مباهج البلدان
من كل جنس في الورى نلفى هنا أخياره في موكب فتان
في كل فن نخبة ممتازة جاءت لتحضر محفل الشبان
جمعتهم للسلم خير علاقة يقوى بها حبل التآخي الواني
الحب برهان الأخوة بينهم والسلم صرح شامخ البنيان
يتسابقون إلى المودة والإخا مثل الولائد في حمى الأحضان
كم يظهرون من الولاء كأنهم إخوان صدق في الهوى صنوان

على ضفات الفستول:

(فرصوفيا) مجلى الجمال وإنها لمسارح للغيد والغلمان
سرنا نجول على جوانب نهرها نتأمل (الفستول) في إمعان[1]
هذي قناطر ضخمة أعظم بها من آية للعلم والعمران
ربطت جوانب(ورشوا)من بعدما قد شقها (الفستول) من أزمان
ومضى يجوس خلالها متحديا عمرانها ينساب كالثعبان
يلقى ويجرف ما يعارض سيره يرمي في البحر للحيتان
جبار لا يخشى تعنت جائر يحتل من مجراه قيد بنان
هذي الجواري الساحبات ذيولها الراقصات على لجين آن[2]

---

(1) الفستول (La vistule) : نهر بولونيا العظيم المار بعاصمتها (وارسو) ينبع من جبال الكرباط بالجنوب ويصب شمالا في دنتزيق ببحر البلطيق.

(2) المراد بالجواري هنا البواخر النهرية السياحية وهي من أجمل ما رأيت، والمراد باللجين الآني : تشبيه الماء بالفضة الذائبة.

كالراقصات على مسارح لهوهـا ... فـي أبـدع الزينـات والألـوان
رقصت بها الأمـواه فوق عبـابه ... كتراقص الأشـباح فـي وجدانـي

الغيد والغلمـــان:

كم من فتـاة أو فتى جاءوا إلى ... (الفستول) حتى اكتظَّ بالضيفـان
فكأنهم نهـران حول النهر في ... وشـي الربـي وتمايل الأفنان
وكـأنمـا النسمـات عبر طريقهم ... أنفاس عطر من شذي الريحـان
أما الريـاض فلا تسـل عمـا بها ... من فتنـة فـي وارف الأغصان
كم عـارضتنا من كِناس جنانها ... ظبيـات كُنَّ كـأحسن الغـزلان
تلقـي السـلام ولا تريد جـزاءه ... غير الفضـول الحلو في الشبـان
كـم من فتـاة أومـأت بتحيـة ... أو طالبت تـوقيعنـا بحنـان
والوجه بادي البشر يطفح بالرضا ... فنقابل الرضوان بالرضـوان
والقوم في التوقيع تقضي حاجة ... الحـب فيهـا أول والـثانـي
ونَـرُدُّ بالمـثل التحية كلمـا ... عَنَّتْ لنـا مـن غير ما سلوان
فتهلـلا بتـهلل وتبسـما ... والطهر ملء النفـس والأردان
وأحسـت الفتيـات أن حبـائـل ... الإغراء لا تجدي مع الأخوان
وبأننا لم نحتفل بجـمالها ... والغيـد تعشق كبريا الفتيان
فـازددن إقبـالا وزدنـا سـلوة ... والحب حرب واسع الميـدان
كـر وفـر فـاتـن ومفـتن ... وتصـارع دومـا بـلا عـدوان

حوار وحـــيرة

هذي ثلاث هن من خير المها ... لم يثنهن تصنع الـــسـلـوان
عـارضننا متحديـات تيهنـــا ... ياللتورع مـــن لظى النيـران
هذا الشبـاب الغض واللطف الذي ... يسبي العقـول بسحره الفتـان
يصبو إليه يوسـف الصديق فـي ... محـرابه يدعو إلى الـغـفران
ربـاه كم للحسن من أثـر على ... إنسـانك الـمفـتون بالنسـوان
وتوزعتنا الآنسـات كأننـــا ... قطع الجـواهر طوع كل بنـان
(فاسيـاغكا صوفي) سمية نسبتي ... كانت حظية صاحبي (رمضان)
(واسياغكا إيـلان) كنت خليلهـا ... ما أسعد (السوفي) مع (إيلان)[1]
أمـا (جنين) فقد تغير حـالهـا ... بين الأحبة فهي فـي بحران[2]
بحران من هم الشكوك ووحدة ... يسود فيها الكـون بالأحـزان
والغيرة الهوجاء تضرم نارهـا ... فتثـور كالحمقاء فـي الخـلان
كم فكرت كيف السبيل وقدرت ... لكنهـا لـم تهـتـد العينـان
وغلت مراجل وهمها في نفسهـا ... فخشـيت ثـورة ذلك البركـان
يـا ويلها من غـادة مسـكينة ... قد حطمتها غيرة النـسـوان

---

(1)- سياغكا : اللقب العائلي لهاتين الفتاتين الشقيقتين (صوفي وإيلان) وهما طالبتان في الكلية و(جنين) جارتهما وتقرأ معهما. والطريف في الأمر أن اسم (صوفي) يلفظن صاده كالسين فجاء فيه هذا الجناس الهائل الكامل مع نسبة صاحبي الحفناوي هالي (السوفي) نسبة إلى (وادي سوف) بصحراء الجزائر الشرقية.
الشقيقتان : (صوفي وإيلان) تحسنان اللغة الفرنسية التي كانت لغة الحوار بيننا، لأنهما نشأتا في فرنسا لهجرة عائلتهما إليها في الحرب العالمية وزميلتهما (جنين) لم تكن تفقه شيئا مما يدور لجهلها بالفرنسية إلا ما يترجم لها من حين لآخر، وذلك هو سبب حيرتها وقلقها كما يأتي.

(2) البحران (بضم الباء الموحدة) : التغير الذي يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحمية الحادة ويصحبه عرق غزير وانخفاض سريع في الحرارة واستعماله هنا مجازي

فتجهمتْ وتـألمتْ وتـعثـرتْ لكنهـا لم تَكْبُ في الميـــدان
وبـدت لنـا إشـراقة في وجهها فظننت أن الـبرق للطوفـــان

اهتداء وعتـــاب

لكنهـا أبدت تجلد صابـر في البأس لا يخشى أذى العدوان
وتوسطتنا في دلال ظاهـــر مـثل الـمظفر عـاد للأقـران
وتأبطتنـا ثم شقت نفســها بل قلبها شطرين فـي اطمئنان
نصف لهذا الخل والنصف الذي يبقـى لهـذا دون مـارجحـان
وتلفتت للكاعَبـيْنِ مشـيرة قـد فـزت بالاثنين في الإبـان
فـأجابتـاها بـابتسـام بـارع ينبى عن الإشفـاق والرضـوان:
مرحـى لك الـحظ الذي أحرزته من بعد مـا قد بُؤْتِ بالحرمـان

كل مـــنا بين اثنتين

يا ويلنا! كيف السبيل ؟ أنقتدي بالكاعب الرعبوب في إذعـان؟
ونصير كالجدَيْـينِ بين جَاذِرِ مستسلمينِ كأودع الخرفـــان
واحسرتا نفسي وحيرة صاحبي أَأَشُـقُ قلـبي مثلهـا ولسـاني؟
وعلمت أني إن أبيـت لقاتل شخصا بريئـا للهـوى نادانـي
فسكتُ مبهوتا لما ينتـابني ورضيتُ مضطـرا بما يلقانـي
وعزمت أن أصلـى العذاب بهمة قعسـاء لا ترتـد بالنـيران
لاُ متَّعَ الحظ التعيس بـجـرعة مـن خمر هـذا الحب في غليان
أهلا وسهلا بالبلاء ومرحـبا بالامتحان لمستـوى إيمانـي
وقلقت لما احتار مني صاحـبي ورنا إلـي بنظـرة النكـران

ونعى علي تساهـــلي وتسرعي في حـين أردف لـومـه ببيان
ماكنت أرغب أن أرد لـسائـل أمـرا فكيـف بشـادن يهوانـي
لولا انـشغال القلب عنهـا بالتي ملكت علي جوانحـي وجناني
لو كان لي قلبـان كنتُ قبلتهـا وسعدت لكن ليس لـي قلبـان
القلب مثل العـرش يقبل واحدا ويضيق عمن زاد في الحسـبان
ولئن تـأبطت الـذراع فحسبهـا مني الذراع فإن لـي ثنتـان

تـوبة وإنابة الشـيخ

ربَّاه إن الشيب جلل مـفرقي كالثلج يكسـو هامـة البركـان
خمسون عاما من حياتي تنقضي بتعـلـم وتـفـهـم الـقران
واليوم تعصف بي عواصف فتنة هو جاء من نفسي على إيمانـي
وارحمتـا للشيخ يهفو قلـبه بصبابة للنـاعـس الأجـفان[1]
رحماك ربي لا تؤاخذ من صبا رحماك كم للحب من سلطان[2]
رحماك إني إن صبأت فلم أُرد غير الصـبابة للصبا الريـان[3]
أنت الجميل وكـل ما أبدعـته حـقا جمـيل فاتـن أغـراني
رفقـا بعبدك يـا رحيم بخلـقه يـوم الـلقـايا واسع الغفـران

---

(1) الصبابة : بقية الماء ونحوه في الإناء وهي هنا رقة الهوى والشوق والمتصف بها صبٌّ. والناعس الأجفان : الغيد يشعرن بالحياء والخفر.

(2) صبا يصبو صبوة مثل شهوة : مال إلى الشيء يميل ميلا

(3) صبأ (بالفتح والهمز) : خرج من دين إلى دين فهو صابئ، اتخذ هذا الوصف لقبا لطائفة من الكفار خرجت من اليهودية أو من النصرانية وعبدت الكواكب والنجوم عرفت بالصابئة وبالصابئين، يزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث بن أدم عليه السلام. وكانت قريش تسمي أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الصابئة في صدر الإسلام لخروجهم عن دين آبائهم وأجدادهم إلى دين الإسلام

ملحق

التعريف ببولونيا

لعل من المفيد إعطاء نظرة عامة –إن لم تكن صورة تامة– للقارئ الكريم عن هذا البلد الاشتراكي الذي لعب ويلعب دورا هاما في سياسة أوربا الشرقية بالخصوص، وبوسع الجزائري أن يلاحظ أوجه الشبه أو الخلاف أو التقارب بين بلده، وهذا البلد الديمقراطي الصديق.

الموقع

تقع جمهورية بولونيا الشعبية في وسط أوربا جنوب بحر البلطيق، بين روسيا في الشرق وألمانيا في الغرب، وبين البلاد الاسكندنافية في الشمال وبلدان مجرى نهر الدانوب في الجنوب. فهي همزة وصل بين أوربا الشرقية وأوربا الغربية من جهة، وبين دول بحر البلطيق ودول نهر الدانوب من جهة أخرى، ولذلك فهي تقوم بدور هام في قلب أوربا.

التسمية

يقال أن اسم بولونيا مشتق من اسم القبيلة أو القبائل السلافية من قوم البولان الذين كانوا يسكنون أراضي ما يسمى الآن (ببولونيا الكبرى). ووجود بولونيا كدولة يرجع إلى مطلع القرن الحادي عشر وكجمهورية شعبية يعود إلى أواخر الحرب العالمية الثانية.

المساحة والسكان

تبلغ مساحتها نحوا من 312700 كيلو مترا مربعا، وهي بذلك تبلغ الرتبة السابعة في أوربا. أما السكان فيصل عددهم إلى أكثر من اثنين وثلاثين مليونا ونصفا أي الرتبة السابعة أيضا في أوربا، وكثافتهم في الكيلومتر المربع (104)، ونسبة سكان المدن المئوية تصل إلى 52 % وسكان الريف إلي 30 %، (يعني أن مساحة بولونيا تمثل سبع مساحة الجزائر لكن عدد سكانها يزيد عن ضعف سكان الجزائر). كان أكثر سكان بولونيا يعيشون على الزراعة بنسبة 60% في سنة 1931 أما الآن فأكثر من ثلثيهم يعملون في المصانع.

الموارد الطبيعية

أهم مواردها الطبيعية، الفحم الحجري (ويقدر احتياطه بأكثر من سبعين مليونا من الأطنان)، والنحاس والكبريت، ثم الفحم الخشبي (اللينيت)، وفحم الكوك والملح الصخري، وأملاح البوتاس، والغاز الطبيعي، والزنك وقليل من الحديد والنفط.

المنـــــاخ

تقع بولونيا في منطقة المناخ المعتدل بأوربا فمعدل الحرارة السنوية فيها يتراوح بين (6) و(8) درجات مئوية، ومعدل الأمطار السنوية فيها بين (600) و (800) مم. وتتميز بظروف إقليمية منشطة لاقتصادها لوقوعها على خطوط العرض المتوسط، ولارتفاعها الضئيل عن سطح البحر، ولتوزيع الأمطار فيها بصورة متوازية خلال السنة.

نظام الحكم

جمهورية بولونيا دولة ديمقراطية شعبية تعمل على تشييد الاشتراكية، والأساس الاقتصادي والاجتماعي لنظام الحكم فيها هو الملكية الاشتراكية لوسائل الإنتاج التي أصبحت إما ملكا وطنيا للدولة، وإما ملكا تعاونيا، أو ملكا جماعيا.

وقد أممت الصناعة والتجارة ووسائل النقل والصرف (البنوك) وغيرها. وصفيت الملكية العقارية الواسعة في أعقاب الإصلاح الزراعي وتظهر ديمقراطية الحكم وشعبيته في الديمقراطية التمثيلية المبنية على مجموعة مجالس وأجهزة هي :

1- **البرلمان** وهو الجهاز الأعلى للسلطة في بولونيا، ينتخب النواب فيه كل أربع سنوات بمعدل نائب واحد لكل ستين ألف مواطن، ويتمتع بحق التصويت كل من بلغ 18 سنة.

2- **مجلس الدولة** هو الجهاز الأعلى الثاني للدولة، وهو منظمة جماعية تابعة لمجلس النواب، ينتخب من قبل البرلمان ومن بين أعضائه، ويمارس سلطات الرئاسة الجماعية للدولة.

3- **مجلس الوزراء** يؤلف مجلس الوزراء الجهاز العالي لإدارة الدولة وتسيير شؤونها، ويقوم المجلس النيابي بانتخاب أعضائه.

4- **الأحزاب** : ولنظام الأحزاب أهمية كبيرة في عمل المؤسسات السياسية، وهو يستند إلى ثلاثة أحزاب سياسية تتعاون فيما بينها، وهي الحزب العمالي

الموحد، وحزب الفلاحين الموحد، والحزب الديمقراطي، لا تتعارض فيما بينها، بل تحكم البلاد مشتركة مع بعضها، ولكل منها ممثلون في البرلمان، وفي مجلس الدولة، ومجلس الوزراء، وفي هيئات الحكم المحلية الجهوية (المجالس الشعبية).

العاصمة

عاصمتها هي مدينة فرصوفيا (وارسو) التي تأسست في القرن (12) للميلاد على نهر (الفستول)، وأصبحت عاصمة للبلاد من ذلك العهد، دمرت في الحرب العالمية الثانية بنسبة 95% ثم بنيت من جديد، وأصبحت الآن مدينة حديثة، ومركزا للثقافة والعلوم والصناعة، يبلغ سكانها حاليا مليونا وثلاثمائة ألف نسمة.

الشـــعار والعلم

شعار بولونيا منذ القرن الثالث عشر للميلاد عبارة عن نسر أبيض رأسه ملتفت نحو اليمين ومنقاره ومخالبه ذهبية، كل ذلك فوق أرضية حمراء، وعلمها ذو لونين : أبيض وأحمر وترتيبهما أفقي يأتي فيه الأبيض فوق الأحمر.

التقسيم الإداري

تقسم بولونيا إداريا (17) مقاطعة (ولاية). وإلى خمس مدن كبرى لها مرتبة المقاطعات، وهي : فرصوفيا، كراكوفيا، بوزنان، وودج، فروتسواف.

بولونيا الشعبية

بعد الحرب العالمية الثانية استعادت بولونيا الحدود التي كانت لها في عهد أسرة البياست، وتم توقيع المعاهدة البولونية السوفياتية للصداقة والمساعدة المتبادلة والتعاون الاقتصادي في 21 أفريل 1945، وكان لمساعدة الاتحاد السوفياتي أهميته القصوى بالنسبة لبولونيا في إعادة بناء اقتصادها وتطورها، وتشكلت حكومة اتحاد وطني في جوان من نفس السنة، وانعقد مؤتمر الدول المتحالفة ضد الهلترية في (بوتسدام) في جويلية من نفس العام، وفيه تحددت الحدود الغربية لبولونيا على نهر الأودرا (Odra) والنيزا (Nysa) وانتخب المجلس التأسيسي الذي عزز السلطة الشعبية في 19 جانفي سنة 1947، وجرى تصميم الخطة الثلاثية (1947-1949)، وفي جويلية 1950 صوت المجلس على قانون خطة السنوات الخمس (1950-1955) التي كان هدفها الأساسي تطوير الصناعة الثقيلة، والتعدين والمناجم وفي 22جويلية 1952 جرى التصويت على دستور الجمهورية الشعبية البولونية، وهو أساس نظام الحكم السياسي القائم حاليا الذي جعل من بولونيا دولة ذات صناعة قوية متطورة مبنية على أساس الاقتصاد المخطط.

بولونيا في الحلبة الدولية

مبادئ سياسة بولونيا الخارجية مستمدة من مفهوم الاشتراكية ومرتبطة ارتباطًا وثيقا بالتحولات الاجتماعية والاقتطاعية التي حدثت منذ أواخر الحرب العالمية، ونشأ معظم هذه السياسة تحت تأثير المحن التي لم يوفرها لها التاريخ من قبل، وخاصة محنة الحرب العالمية الثانية.

فبولونيا متحدة بالبلاد الاشتراكية في أوربا بالخصوص بسلسلة من اتفاقيات التحالف الثنائية المتعددة الأطراف، وعلى رأسها اتفاقية الصداقة والتعاون والمساعدة المتبادلة مع الاتحاد السوفياتي التي ضمنت لها استقلالها وحدودها من البداية، ثم توجت تلك المعاهدة مع ألمانيا الشرقية، وأخيرا مع ألمانيا الغربية، ومن سنة 1955 أصبحت عضوا في معاهدة فرصوفيا (حلف وأرسو) ذلك الحلف الدفاعي للدول الاشتراكية الأوربية الذي كان ردا طبيعيا على (الحلف العسكري لشمال الأطلسي) بالنسبة للدول الغربية، وهي عضو مؤسس في منظمة الأمم المتحدة، وتلعب دورا فعالا في مختلف لجان الجمعية العمومية بها، وفي لجان المجلسين الاجتماعي والاقتصادي المنبثقين عن الأمم المتحدة، ومعظم منظماتها.

وبولونيا التي عانت من وحشية الحرب لا تكون إلا مناصرا طبيعيا للحلول السلمية في النزاعات الدولية وقد عبرت عن ذلك مرات في الحلبة الدولية، وفي مجلس العلاقات مع البلدان النامية تطبق مبدأ التعاون والمساعدة مع البلدان المتحررة، ومبدأ التضامن مع الشعوب المناضلة ضد الظلم الاستعماري، وتمنحها تأييدها لاستكمال حريتها، من ذلك مثلا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل إثر عدوان سنة 1967، وشجبها لميولها التوسعية في الشرق العربي، ومعارضتها لسياسة الميز العنصري في جنوب إفريقيا بالخصوص، ودعمها الأدبي والمعنوي لحركات التحرير في إفريقيا وغيرها.

بولونيا والجزائر

أما روابط الصداقة والتعاون بين الجزائر وبولونيا، فما انفكت تتطور وتتوطد بأطراد من سنوات وتمخض عنها توقيع عدة اتفاقيات بين البلدين في ميادين : الاقتصاد والاجتماع والثقافية والفن والرياضة.

وهناك لجنة جزائرية بولونية للعلاقات التجارية والتعاون الاقتصادي والعلمي والتقني، تجتمع دوريا في البلدين الصديقين. هذه هي بولونيا باختصار بالغ.

(ملاحظة) : معلومات التعريف ببولونيا مستقاة من كتاب (بولونيا وقائع وأرقام) المطبوع سنة 1970.

المراجع والمصادر لهذه الرحلة

كان من أهم المراجع والمصادر التي اعتمدتها في تحقيق معلوماتي الجغرافية والاقتصادية والسياسية والتاريخية لهذه الرحلة :

1- الموسوعة العربية لألبرت الريحاني وجماعة ط.أولى سنة 1955.

2- هذا العالم لعبد المنعم الشرقاوي ومحمد الصياد ط.ثالثة 1957.

3- الموسوعة العربية الميسرة ط.أولى سنة 1965.

4- القاموس السياسي لأحمد عطية الله ط.ثالثة سنة 1968.

5- بولونيا وقائع وأرقام سنة 1970.

6- العالم بين يديك (عدد 378 من سلسلة (إقرأ) ط. (2) سنة 1974.

7- Mon agenda du festival Warzovie 1955

8- Géographie (l'Europe et l'U.R.S.S) collection A.journaux (Hâtier).

9- Atlas Universel

إصدارات للمـــــؤلف

1- الناشئة المهاجرة (مسرحية مدرسية) طبعت بتلمسان سنة 1949.

2- الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة القومية المصرية لتلمسان سنة 1950.

3- ألحان الفتوة (أناشيد تربوية وطنية للكشافة الجزائرية) عدة طبعات في مصر ولبنان والجزائر.

4- النصوص الأدبية للمعاهد الإسلامية بالاشتراك مع توفيق شاهين (أربعة أجزاء)

5- شهيد الكلمة أحمد رضا حوحو وإنتاجه (دراسة).

6- الخنساء (مسرحية تاريخية أدبية) للثانوي.
7- مغامرات كليب (قصة من أدب الأطفال) للإعدادي.
8- جغرافية الجزائر والعالم العربي للتكميلي.
9- مبادئ الجغرافية العامة وجغرافية الجزائر للابتدائي.
10-سوائح وارتسامات عابر سبيل (رحلة).
11-إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس بالاشتراك مع عبد القادر فضيل.

وفي تحقيق تراثنا الخالد:

- من آثار ابن باديس:

1- العقائد الإسلامية لابن باديس (رواية وتحقيق وتعليق تلميذه م.ص.رمضان)
2- تفسير بن باديس (جمع وترتيب وتعليق م.ص.رمضان وتوفيق شاهين)
3- من هدي النبوة (تحقيق وتعليق تلميذه م.ص.رمضان وتوفيق شاهين)
4- رجال السلف ونساؤه (تحقيق وتعليق تلميذه م.ص.رمضان وتوفيق شاهين)
5- من القصص الهادف(تحقيق وتعليق تلميذه م.ص.رمضان وتوفيق شاهين)

- تحقيقات أخرى :

1- تحقيق وشرح وتعليق على ديوان الأمير عبد القادر بالاشتراك مع السائحي بن عبد القادر.

فهرس الرحلة

العنـــوان	الصفحة
الإهداء	09
الترجمة الذاتية للمؤلف	11
تقديم	15
تقديم آخر	27
كلمة الأستاذ جريدي	31
مقدمة المؤلف	33
بين يدي هذه السوانح	37
القسم الأول (الرحلة إلى بولونيا)	43
الاستعداد للرحلة	47
بدء الرحلة	48
البحر الأبيض المتوسط	49
الاستعمار الفرنسي	50
مرسيليا	52
الساحل اللازوردي	53
الريفيرا الايطالية	54
جنوة	55
نبذة تاريخية عن منطقتها	56

هجوم حنبعل 57
صراع بين إمارتها 58
من تاريخها المعاصر 59
إيطاليا اليوم 61
البندقية 62
نبذة تاريخية عنها 66
ترباستا الحرة 67
جبال الألب الشرقية 68
الستار الحديدي 72
النمسا وعاصمتها فيينا 73
تشيكوسلوفاكيا 79
العلاقة بين عاصمتها وعاصمتنا 83
بولونيا 85
نظرة عامة تاريخية وجغرافية لها 87
فرصوفيا عاصمة بولندة 90
فرصوفيا في الماضي القريب 94
العودة من فرصوفيا 99
سويسرا 100
جنيف 103
مرسيليا 104

القسم الثاني (فرصوفيا مدينة المهرجان الخامس) 109

مهرجانات الشباب والطلاب في العالم 111
نظرة عامة : مهرجان فرصوفيا 115
وصف المهرجان 117
الافتتاح 118
البرنامج الإجمالي للمهرجان 122
أيام ولقاءات لا تنسى 125
أوضاع وترتيبات 130
الوفد الجزائري 133
صور من الرقص والغناء والموسيقى 134
فرصوفيا اليوم والخدمات الاجتماعية بها 137
الاشتراكية البولونية 139
أشياء صغيرة لها دلالات كبيرة 140
المرأة عديلة الرجل 142
حضيرة تفريخ بشرية 144
الديانة في بولونيا 148
التنزه يوم الأحد 150
في حديقة الحيوان 154
جولات وتطلعات في العاصمة 156
قصر الثقافة والعلوم 157
حي الغيتو 161
حمامات الدم في العالم 169

القسم الثالث (من وحي الرحلة) 173

من وحي الرحلة 175

فرصوفيا المحطمة (شعر) بولونيا والحرب 183

الظلام الآثمون 184

العهد الجديد 184

فرصوفيا والفستفال 184

قرطاج عصر النور 185

قصر الثقافة والعلوم..... 186

لسان حال القصر 186

القصر وأقسامه 187

معارجه وطوابقه 187

حي الغيتو 188

اليهود والنازيون 188

التوحش الأوربي 189

بين الأطلال والخرائب 189

الأسى يبعث الأسى 190

الحرب الاستعمارية في الجزائر 191

عاقبة الظلم والعدوان 191

جهاز خاص يستعمل لأول مرة 191

القسم الرابع (شيخ من صحراء الجزائر في مهرجان الشباب 195

شيخ يتصابى وآخر يتزمت 197

الحب وأثره 198
مهرجان فرصوفيا 198
على ضفاف الفستول 199
الغيد والغلمان 200
حوار وحيرة 201
اهتداء وعتاب 202
كل منا بين اثنين 202
توبة وإنابة الشيخ 203
ملحق التعريف ببولونيا 204
المراجع والمصادر 211

فهرس الصور **الصفحة**

صورة شخصية للمؤلف 01
مناظر الخراب و حركة البناء 93
زملاء الرحلة في صورة تذكارية 98
صورة تذكارية في مطار مرسيليا 106
صورة تظاهرات المهرجان 120
صورة افتتاح المهرجان بالملعب البلدي 136
صورة في دار من دور الحضانة 147
صورة تادي دليلنا في فرصوفيا 152
قصر الثقافة بفرصوفيا 159

نزهة في حي الغيتو بفرصوفيا 163
أمام النصب المقام لليهود بحي الغيتو 165

فهرس الخرائط :

خريطة الذهاب إلى فرصوفيا 45
خريطة العودة إلى الجزائر 107

الإيداع القانوني Dépôt Légal **2004-2602**

ردمك ISBN **9961-9560-3-6**

تمت الطباعة
بمطبعة موندیـــــال كـــوم

في هذه الرحلة العصرية (سوانح وارتسامات عابر سبيل) يقف القـــارئ على نتف وطرف من السياسة والأدب، ومن التاريخ والجغرافيا، وحـــتى الدين والاجتماع، زيادة عن وصف المشاهد، وذكر الانطباعات، وبعض المناقشات والمحاورات التي وقعت في هذه الرحلة العابـــرة الملأى بـــالعبر، والآراء والفكر، وفيها خواطر تسر الخاطر، ومناظر تبـــهج الناظر، تحي بها أدب الرحلة الذي اندثر أو كاد يندثر في مغربنا العربي.

من مقدمة المؤلف

المجلس الأعلى للغة العربية

06 شارع العقيد امحمد بوقرة - الجزائر
الهاتف : 25-24.07.23.021
الفاكس : 07.07.23.021
ص.ب 575 الجزائر - ديدوش مراد

Mondial Com 021 72 12 73

الإيداع القانوني: D.L: 2602 -2004

ردمك: ISBN: 9961-9560-3-6